١٣٣

المورد

مَجَلة تُرَاثية فَصلية مُحكّمة

تصدرها وزارة الثقافة - دار الشؤون الثقافية العامة

المجلد [illegible] والثلاثون - العدد الأول - سنة ٢٠٠٧م

المورد

مجلة تراثية فصلية محكمة

تصدرها وزارة الثقافة - دار الشؤون الثقافية العامة

المجلد الرابع والثلاثون

العدد الاول - ٢٠٠٧م - ١٤٢٨هـ

رئيس مجلس الإدارة

فاروق خضر الدليمي

رئيس التحرير

د. محمد حسين الأعرجي

الهيأة الاستشارية

أ.د. خديجة الحديثي

أ.د. جواد مطر الموسوي

أ.د. فليح كريم الركابي

أ.د. داود سلوم

أ.د. مالك المطلبي

الاستاذ حسن عريبي

هيأة التحرير

نائب رئيس التحرير

احمد عبد زيدان

سكرتير التحرير

محمود الظاهر

التصحيح اللغوي

سليم سلمان

نجلة محمد

امل عبد الله

الإشراف الفني والتصميم

جنان عدنان لطيف

ياسر بدر باسم

الأسعار

العراق: ٥٠٠ دينار، الأردن: ديناران، الإمارات: ٢٠ درهماً، اليمن: ٣٠ ريالاً، مصر: ٣ جنيهات، ليبيا: ٢ دنانير، الجزائر: ٦٠ ديناراً، تونس: ديناران، المغرب: ٣٠ رهماً.

عنوان المراسلة

دار الشؤون الثقافية العامة - الأعظمية -

ص. ب: ٤٠٣٢ بغداد

جمهورية العراق

هاتف: ٤٤٣٦٠٤٤

فاكس: ٤٤٨٧٦٠

المشاركة السنوية

٥٥ دولاراً في الأقطار العربية.

في دول العالم الاخرى ٨٠ دولاراً.

لوحة الغلاف / رافع الناصري

الافتتاحية

المرأة في تراثنا.......... رئيس التحرير.......... ٣-٤

دراسات وبحوث

الحالة الاقتصادية في عهد
الخلافة العباسية .... البرفسور : أ. بيليايف
ترجمة: أ.د. جليل كمال الدين ٥ - ٣٣

الاستثمار في الاسلام واثره في نشوء شركات
المضاربة في القرن الاول الهجري.......... د.عبدالرزاق احمد وادي السامرائي ٣٤ - ٤٧

الموضوعات النحوية في كتاب "الروض الأنف"
للسهيلي .... يوخنا مرزا الخامس ٤٨ - ٧٥

امرؤ القيس مسائل بين
الحقيقة والاختلاق .... كاظم سعدالدين ٧٦ - ٨١

علم الأنساب عند القلقشندي.......... د.جواد مطر الموسوي ٨٢ - ٨٧

الحركة الثقافية في القرن الرابع
الهجري في العراق .... أ.د. حسين امين ٨٨ - ١٠١

نصوص محققة

ديوان ابي الفتح البستي
- القسم الرابع - .... تحقيق شاكر العاشور ١٠٢ - ١٣٥

عرض كتاب

السيد كاظم العوادي ودوره الوطني
[illegible] .... نجلة محمد ١٣٦ - ١٣٧

[illegible] .... حسن عريبي الخالدي ١٣٨ - ١٦٠

الحالة الاقتصادية في عهد الخلافة العباسيّة

البرفسور : ي .ا. بيليايف
ترجمة أ. د. جليل كمال الدين [عن الروسية]

تقديم

[البرفسور يفغيني الكساندروفيج بيليايف (١٨٩٥-١٩٦٤) مستشرق ومؤرخ روسي بارز، شارك في عدد من المؤتمرات الدولية للمستشرقين. وهو دكتور في العلوم التاريخية، وعضو شرف في المجمع العلمي في الجمهورية العربية المتحدة. وقد تلقى تحصيله العالي الاستشراقي في الكلية الشرقية بجامعة بطرسبورغ وفي معهد الاستشراق بموسكو. ومنذ عام ١٩٢٢ حتى وفاته كان يعمل في تدريس التاريخ، وفي البحث العلمي في معاهد الدراسة العليا ومؤسسات البحث العلمي في موسكو واشتهر مختصاً كبيراً في الإسلاميات، وفي تاريخ العرب في القرون الوسيطة. وقد نشر أكثر من مائة عمل علمي معتبر].

(المترجم)

الزراعة:

لقد جرى في القرن الأول من العهد العباسي (في النصف الثاني من القرن الثامن والنصف الأول من القرن التاسع) تطور هام للإنتاج، والتبادل التجاري، والثقافة. وبتبيننا هذه الحقيقة الهامة، ينبغي أن نأخذ في حسابنا أن هذا التطور (خصوصاً في حقل الثقافة) كان نسبياً. وكان مستوى الإنتاج، دون شك، أكثر ارتفاعاً، كما كان التبادل التجاري أكثر حيوية مما كان عليه الحال أيام الأمويين، لكنه كان واطئاً لحد كبير، مقارنة بذلك المستوى الذي بلغته أقطار الشرقين الأدنى والأوسط في القرنين العاشر والحادي عشر. ويقرر ف.ف بارتولد أن الخلافة قبل تدهورها كانت دولة بالغة البدائية والفظاظة بحيث أن العمل الثقافي الذي من جرّائه اشتهرت بغداد وأصفهان والمدن الأساسية الأخرى للعالم الإسلامي قد ابتدأ بعد جهد في بعد العباسيين الأوائل[1].

لقد كان الفرع الأساس في الإنتاج هو الزراعة، المؤسسة على الريّ الصناعي. وكان أعلى مستوى بلغته الزراعة بالري في أرض العراق، لا سيما في قسمه الجنوبي- السواد. فقد كانت الحقول هنا تجود بمحاصيل غنية في الأراضي المزروعة بالحبوب، كما بلغت حداً كبيراً في تطور البستنة وزراعة أشجار النخيل، التي أعطت ثماراً شهية مليئة بالعصير الريّان. كما ازدهرت في العراق والمناطق المجاورة له من إيران زراعة القطن وقصب السكر. وقد تطورت زراعة الرز في الأماكن المنخفضة التي ركد الماء فيها أمداً طويلاً بعد فيضان النهرين الكبيرين في أرض ما بين النهرين. والى جانب العراق وجنوب غربي إيران كان ثمة قطر آخر تطورت فيه الزراعة بالري هو مصر (وخصوصاً الدلتا الخصبة). فهنا، الى جانب الحبوب، كان

الكتان يُزرَع أيضاً بكميات كبيرة. وعند موازنة هذه الأقطار التي تشغل مكاناً قيادياً في اقتصاد الخلافة العباسية، نجد أن سوريا التي فَقَدت وضعها الامتيازيّ السابق تحتلّ المقام الثاني، وإن كان هذا المقام لا يزال يتمتع بأهمية ليست بالقليلة.

وفي معظم أقطار الشرق (بما في ذلك أقطار الخلافة أيضاً) كانت الزراعة ممكنة في ظروف الريّ الصناعية وحدها. وقد عبّر العرب عن ذلك بالمَثَل الذي يقول: حيث ينتهي الماء تنتهي الأرض أيضاً. إن هذا يعني أن الارض غير المرويّة بانتظام بالماء ليس لها أية قيمة اقتصادية عند الزارع، وتظلّ عقيمة برغم العمل المُنفَق في فلاحتها. إن الاعتماد على هطول المطر، أمر لم يستطعه الزارعون وفي بعض الأقطار الشرقية كانت الأمطار قصيرة الأمد وتسقط نادراً (وأحياناً يستمر الجفاف بضع سنوات)، وفي أقطار اخرى كان المطر يهطل شآبيبَ عنيفة تجرف الطبقة الخصبة من الأرض أكثر مما ترويها. ولذلك، فمنذ الأزمان القديمة للنظام العبودي أقيمت في أقطار الشرقين الأدنى والأوسط منظومة متكاملة متطوّرة للري الصناعي، كانت تحت سيطرة السلطة المركزية للدولة. وقد حوفظ على هذه المنظومة، على نحو أساس، في عهد خلافة بغداد أيضا وهذه المنظومة قد تعرّضت حقاً على مدى آلاف السنين للتخريب والتدمير مرات كثيرة، نتيجة لغزوات البدو الرحّل، وللحروب المهلكة التي أدّت الى سقوط الدول والسلالات المالكة. ولكن الطاقة التي لا تعرف الكلل للإنسان كانت، على الدوام، تعمّر ما ضُرّب من منشآت الري، الذي كانت الزراعة مستحيلة من دونه.

وعند مجيء العباسيين الى السلطة، كانت منظومة الريّ في العراق في تدهور بالغ. ويُفَسَّر هذا الأمر بالأحداث الاجتماعية السياسية الخطيرة، والانتفاضات والحروب المتواصلة في عهد الأمويّين. وقد تعيّن على العباسيين، ابتداء من حكم الخليفة المنصور، أن يوجّهوا اهتمامهم الى الإنتاج ليس بسبب الاعتبارات المالية فحسب بل للاعتبارات الاجتماعية أيضا. إن تطوّر الإنتاج قد رفع مستوى السكان (وبالدرجة الأولى الفلاحين)، وأخرجهم من حالة العوز المزمن، التي كانوا عليها أيام الأمويين. وقد وجّهت السلطات العباسية جهود الزارعين، إلى تعمير وتحسين منظومة الريّ الصناعي، قبل كل شيء. وكان هذا الأمر ممكن التحقيق نسبياً، لأن أكثر الأماكن المزروعة كانت ملكا للدولة، وكان الزارعون فيها يخضعون للإدارة الحكومية. وقد وجدت أعمال التعمير لمنظومة الريّ تعبيرَها في تنظيف الأقنية المهجورة، والمطمورة بالرمل والغرين، وفي شقّ أقنية جديدة أيضاً. إن توسيع أقنية الريّ قد ترك تأثيراً فورياً تجلى في زيادة الأماكن المزروعة وفي رفع ربعية الأرض.

لقد كرّس الحكام العباسيون جُلّ اهتمامهم للإنتاج في العراق، الذي كان يرد منه أكثر من ٣٠٪ من واردات خزينة الدولة. وبهذا الخصوص تجدر الإشارة الى آراء مؤسسي الماركسية حول الإدارات والموارد الثلاثة التي كانت تمتلكها حكومات الشرق. فقد كتب فريدريك انكلز الى ماركس يقول: لقد كان للحكومات في الشرق دائماً ثلاث إدارات: المالية (نهب بلدانها)، والحروب (نهب بلدانها والبلدان الاخرى)، والأعمال الاجتماعية (العناية بالانتاج)[٢].

وفي أيام الأمويين. كان نشاط الإدارة الثالثة غير مستمر، وضعيفا. أما في عهد العباسيين فقد صارت هذه الادارة تعمل بدرجة النشاط الذي تعمل به الإدارة الأولى ذاته والنتائج الإيجابية، المستحصلة من الإنتاج، كانت غالبا تتقلص، وأحياناً يجهز عليها تماماً نشاط الإدارة المالية، التي كانت تقوم بنهب نظامي للسكان الكادحين.

لقد كانت الزراعة في العراق تعاني ليس فقط نقص الماء المجهز للحقل، بل كانت تعاني أيضاً العمل التدميري للأنهار الكبيرة (وخصوصاً لنهر دجلة العاصف والسريع الجريان) في موسم الفيضان السنوي. ومن أجل درء الكوارث الطبيعية، التي كانت السيول، عند حلولها، تجرف طبقات التربة المزروعة، وتحمل الموت للناس والماشية والدواجن، وتدمّر المساكن، من أجل درء ذلك كان ضرورياً تقوية الضفاف، وإقامة السدود والحواجز في الحقول. وقد

بذل سكان القرى على الضفاف الكثير من جهودهم في هذا المجال وفي القسم الجنوبي من السواد، في منطقة شطّ العرب، كان النهران الكبيران، المتحدان في مجرى واحد، يقدّمان العون للزارعين المحليين. ففي وقت المدّ، كان ماء البحر من خليج البصرة يصبّ يومياً في مجرى شط العرب، مكوناً عائقاً لتياره. وآنذاك كان ماء النهر العذب، الذي يرتفع مستواه يغمر الحدائق، ومزارع العنب، والبساتين وغياض النخيل في الضفتين. إن مثل هذا الفيضان اليومي لم يكن يسقي الأماكن المغمورة بمائه فحسب، بل كان يستمدها أيضاً، بتخليفه، بعد الجزر، طبقة رقيقة من الغرين المخصب.

لقد كان فن الزراعة والريّ في مستوى واطئ، وفي حالة من الرتابة المميّزة لأسلوب الإنتاج في العهود الإقطاعية الأولى. وكانت النواعير تعد أكثر الأدوات الفنية تقدماً في الريّ الصناعي. وكانت الآنية الجلدية أو الفخارية تُشَدّ بالطوق. ولدى حركة العجلة كانت هذه الآنية تضخ الماء من النهر الكبير، ليجري في ميزاب ينسكب منه إلى أرض الحقل مباشرة. إن هذه العجلة القادرة على الدوران على محور، كانت اعتيادياً تستند على وَتَدين، وكان يحركها أحياناً زوج من الجواميس أو زوج من الإبل. إن مثل هذه الآلة المصنوعة منذ قديم الأزمان، والمستخدمة في العراق وسوريا، كانت تعد إحدى "معجزات" فن ذلك الزمن وكانت هناك آلة أخرى، اكثر تداولاً بين الزراع، وقد عدت المنجز التكنيكي الأكثر شيوعاً، وهي الشادوف، الذي كانت ذراعه تدور على وتد خشبي، وكان الزارعون بواسطته يسحبون الماء يدوياً ويسكبونه في الحقل. وفي مصر كانت الشواديف تُستخدم منذ أزمان الفراعنة، مع البارم المائي، المستخدَم في العصر الهليني.

وكانت الأدوات الزراعية أكثر بدائية. وكان هناك القدوم والرفش، والمذاري، والمناجل في كل مكان، وكانت كل هذه الأدوات على الحال ذاته الذي وُجدت عليه طوال آلاف عديدة من السنين، في الأقل منذ أزمان السومريين، وبناة أهرام الفراعنة. كما أن المحراث أيضاً احتفظ بتصميمه البالغ القدم وبالأحرى كان هذا محراثاً من دون مِقطَع ولوح. ووفقاً لشروط التربة والمناخ، فعند الحراثة لم يكن مطلوباً الحرث العميق لطبقات الأرض، بل كان يكفي عزقها فقط.

ولم يخطر في بال أحد تطوير الآلات الزراعية، من أجل تسهيل عمل الزارع والتقليل من عنائه. ويمكن تفسير التخلّف التام في فن الزراعة، لحد كبير، بالاستخدام الواسع لعمل العبيد في الزراعة والريّ الصناعي في عهد الأمويين. أما في العهد العباسي، فإن الأهمية الإنتاجية للعبد باتت تتدهور. بل استمرّ استغلال العبيد في أصعب أشكال الانتاج: في استصلاح الأراضي البور وريّها، وتجفيف المستنقعات، وتنظيف المالح، وكذلك في استخراج الملح والمعادن. وينبغي الإقرار بأن أهم سبب للركود في فن الزراعة كان هو الاهتمام الأدنى للزراع في تطوير الإنتاج. فإن كل الإنتاج الفائض، بل قسم من القوت الضروري كان غالباً ما يُؤخذ من الفلاحين في شكل ضريبة ريع(*).

لقد عدت أكثرية الأرض عائدة الى الدولة وعند فرض ملكية الدولة على الأرض، فإن الريع كان يُجبى بشكل ضريبة على الأرض، وفي واقع الحال كان هذا هو ضريبة الريع التي كانت تُستحصل من الفلاحين على أيدي موظفي ديوان الضرائب المالي في الدولة [ديوان الخراج- المترجم]. وكان تحصيل الضرائب غالباً ما يقترن بصنوف من سوء التصرف، يقترفها هؤلاء الجباة، الذين كثر بينهم المرتشون والمبتزون، الذين كانوا يستغلّون، لأغراضهم الخاصة، جهل الفلاح، وخنوعه بسبب الضغط، وعدم قدرته على الدفاع عن نفسه. وكان نظام تعداد التواريخ يجري وفقاً للتقويم الهجري القمري، أما ضريبة الأرض فكان العرف أن تستحصل وفقاً للتقويم الشمسي، الذي كان يتفق مع أوقات العام. وباستغلال عدم تصادف التقويم الرسمي مع التقويم الشمسي الفلكي، كان المحصّلون يمكرون أحياناً، فيجبون الضريبة مرتين في العام.

لقد شدّدت الحكومة العباسية الضغط الضرائبي على الفلاحين طالما كانت معارضتهم لا ترعبهم. وفي أيام المنصور، كانت الضريبة

مركز تحقيقات كامپيوتری علوم اسلامی

التي تُجبى من سكان الأراضي المفروض عليها الخراج (وكانت هذه في الجوهر أراضي الدولة)، كانت تُستَحصل إما من الأراضي المزروعة تبعاً للكيل، عيناً ونقداً، أو في شكل أجزاء من الحاصل، عيناً. وفضلاً عن ذلك، بقيت، كذلك، تلك الأراضي التي كانت ضريبتها تُجبى طبقاً للاتفاقيات التي سُنت أيام الغزوات. وإلى جانب الأراضي الخراجية، كانت توجد أراضٍ ملك، وكانت تعد ملكية وراثية الفلاحين. ومن هذا الصنف من الأراضي كانت تُؤخذ ضريبة "العشر"*. وأخيراً، كانت هناك أراضٍ متحررة من الضرائب. وكانت هذه هي أراضي الخليفة وأعضاء الأسرة الحاكمة، وبعض الأعيان والوجهاء، وكذلك أراضي الوقف، أعني بذلك الموقوفة (بما في ذلك الأرض) التي تعود ملكيتها إلى المساجد والمؤسسات الدينية الإسلامية، وكانت إيرادات أراضي الوقف تحت تصرّف رجال الدين.

إن السعي لزيادة إيرادات الضرائب من الأراضي الخراجية، قد وجد تعبيره، في عهد الخليفة المنصور وأخلافه، في استبدال الضريبة النقدية بالضريبة التي كانت تؤخذ عَيناً، بشكل أجزاء من الحاصل، تبعاً لمساحات الأراضي المزروعة. إن مثل هذا التغيير المشدَّد إجراؤه خصوصاً في عهد هارون الرشيد، قد ضاعف تردّي أحوال السكان المفروضة عليهم الضرائب، فيما ضَمَن للخزينة، وللطبقة السائدة مبالغ محددة من الإيرادات الضريبية. وعندما كانت الضريبة تُستَحصل، في شكل أجزاء من الحاصل، فإن المحل والجدب وقلة المحصول، التي كانت تضع الفلاحين في وضع لا يحسدون عليه، كانت تقلّل من إيرادات الخزينة ودخول الفلاحين معا, إما بإدخال نظام الضرائب المستَحصلة على وفق مساحات الأراضي المزروعة، فإن التبعات الثقيلة المترتبة على هلاك المزروعات (بسبب الفيضانات المدمرة أو غارات الجراد مثلا) كان يتحملها الفلاحون الذين كانوا مُلزمين بأن يؤدّوا المبلغ المقرر للضريبة وحدهم، بصرف النظر عن مقدار الحاصل المجني. وزيادة عن ذلك كله، فإن استحصال الضرائب نقداً قد جعل الفلاحين معتمدين على السوق وخاضعين له.

وبما أن الدولة لم تكن تملك الأرض فحسب، بل الماء أيضاً، فإن تحديد الضرائب ووضعها كان يعتمد، كذلك، على مصدر إرواء الحقول. وكانت أكبر الضرائب هي التي يدفعها الفلاحون الذين يسقون حقولهم مباشرة من شبكة قنوات الري التابعة للدولة. أما اذا كان الفلاحون يشقّون قناة يتدفّق فيها الماء إلى حقولهم من شبكة قنوات الري، فإن الضرائب في هذه الحالة كانت تتضاءل (حتى ربع الحاصل).

وقد أشار أبو يوسف على الخليفة بوجوب استحصال ضرائب الريع (الخراج)، فلم يكن يروق الحاكم أن يدع مسلماً واحداً دون أن تجبى منه الضريبة: (إنه لن يقدم تساهلاً ولا لأي واحد منهم، سامحاً له يشطر مما يستحق). ولا يُسمح، كذلك، لجباة الخراج، أن يمضوا في اتفاق مع ممثلي الطوائف غير المسلمة (أهل الكتاب)، فيكتفون بمقدار الخراج المقترح، من غير إحصاء عدد السكان المشمولين بالخراج. وحسب الظاهر، كانت غالباً ما تقع حوادث، يتسلّم فيها جابي الخراج الرشوة من كبير القرية، فيقلّص مقدار الخراج، مسبباً، بذلك، الضرر للخزينة. ومعلوم أيضاً من المصادر الاخرى، أن الرشوة كانت أفضل وأعمّ وسيلة للتخلّص من دفع الخراج.

وقد اعترض أبو يوسف، بقوة، على استحصال الضرائب من المُعدَمين، والمرضى والشيوخ، وتعذيب المدينين بسبب عدم تسديد الضرائب (يمكن الاستنتاج بأن مثل هذه الظواهر غير المشروعة كانت شائعة في كل مكان).

وقد عد الفقيه القاضي البغدادي هذا أمراً غير مسموح به وهو تعريض الذمّيين للضرب المبرح من أجل استحصال الجزية منهم، أو إجلاسهم تحت هجير الشمس، أو تعذيبهم بوسائل اخرى وهو يرى أنه ينبغي ان يُرفَق بهم، ويُحبسوا حتى يؤدّوا ما عليهم)(*) بل هو ينصح الخليفة بأن يُصدر أمراً بوجوب تفقّد أحوال الذمّيين حتى لا يُظلموا، ولا يؤذوا، ولا يكلّفوا فوق طاقتهم، ولا يُؤخذ شيء من

أموالهم. بحق يجب عليهم...)[٣].

إن مثل هذه النصائح المترفـقة بالإنسان، التي يقدمها للحـاكم المطلق، الإقطاعي واحد من المفكرين البارزين للطبقة السـائدة(**) إنما كان لها هدف أساس يقـضي بـدرء الثورات الشعبـية، التي زعزعت أركان الخلافة العباسية.

لقد أثارت سياسة تشديد الاستغلال سخطاً واسعاً لدى جماهير الفلاحين، ووجَد تعبيره في الانتفاضات المتعاظمة كافة، وخصوصاً في عهد هارون الرشيد. ولذلك، أصدر في عهد الخليفة المأمون، عام ٨٢٠، أمر يسمى أحياناً بـ "قـانون المأمون"، نصّ على أن يكون الحدّ الأقصى للخراج ثُلثَي الحاصل.

والى جانب الزراعة، كان ثمة أمر آخر يتمتع بـأهمية اقـتصادية كبيرة، وهو تربية الدواجن. لقـد كانت هذه الحيوانات تُربى ليس لتوفير الالبان واللحوم فحـسب، بـل كانت أيضاً تجهّز الزراعة، والري، أحياناً، بـالحيوانات العاملة، وكذلك كانت تقـدم المواد الأولية للإنتاج الحرفي المتطور. وفي الأرياف البـدوية الواسـعة، المجاورة للمناطق الزراعية، تطورّت تربية الإبـل، التي كانت توفر اكثر وسائل النقل شيوعاً. فقد كان التـبادل التجاري البرّي بـين الدول، والمناطق، والمدن يتمّ بواسطة قـوافل الإبـل، التي كانت تحمل البضائع الى مسافات شاسعة.

الإنتاج الحرفي، المدن:

إن ثاني توزيع اجتماعي واسـع للعمل -نعني فصل الحرف عن الزراعة -تمّ لدى العرب منذ ظهور الإسلام، أما في الأقـطار التي فتحـوها -ففي عصر العبـودية القـديم. وفي الاغلب كان أكثر الحرفيّن من ذوي الاختصاصات المختلفة يسكنون المدن الكبيرة، ولكن كانت هناك أيضاً القرى التي كان سـكانها يشـتغلون ليس بزراعة الحبوب بل بالحرف أيضا، وكان أكثر هؤلاء يعملون إما في صناعة النسيج أو في الصناعات الجلدية.

والى جانب تطوّر الزراعة بالريّ في أقطار الخلافة العباسـية، في النصف الثاني من القـرن الثامن، وفي القـرن التاسـع، كان هناك ازدهار الإنتاج الحرفي. وكانت أكثر الحرف شيوعاً الغزل والحياكة. وكان الحرفيون ينتجون أنسجة جيدة الصنع من الكتان، والقطن، والصوف، والحرير. وكانت الأنسـجة الكتانية الرفيعة المسـتوى (مثل التّيل) تُنتج في الوجه البحري في مصر. وقـد اشـتهرت هذه بنوعيتها الرفيعة، وكانت تحظى بإقبال المشترين خارج البـلاد. وفي سوريا كانت قـد تطوّرت صناعة الحرير، وكان الحرفيون المحليون الحاذقون يصنعون من الحرير أنسجة رائعة وديبـاجاً فنياً. وفي كل أمصار الخلافة تقريباً كانت تُصنَع (الأجواخ" الرقيقة المتينة، الملونة بإتقان. وكان الصباغون الاختصاصيون الماهرون يتولّون صبـاغة منتوجات النسّاجين بأصباغ طبـيعية، ويسـتخرجونها من عصير الأوراق، ولحاء الشجر، وجذور النباتات المختلفة.

وتطوّرت صناعة الجلود، كذلك، تطوراً كبـيراً، ولا سـيما الأساليب المتقنة لدباغتها. وكانت صناعة الملابس والأحذية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بإنتاج الأنسـجة والجلود. وبـالدرجة الأولى كانت منتجات الحرفيين الشغوفين بعملهم، والمجربين، الذين بلغوا إتقـاناً فنياً في مصنوعاتهم، ترد لتطمين الاحتياجات الرفيعة التفنّن للطبقـة السائدة التي يتزعّمها الخليفة، والأغنياء، والعلية من رجال الدين. وكانت الجماهير الكادحة التي كانت أذواقها تتحددبمحـدوديّة ما لديها من نقود مضطرة للاكتفاء بالمصنوعات الرخيصة والغلة غالباً، من القطن، والكتان، والصوف. وبذات القَدَر كان الشعب البسيط لا يستطيع حقـاً ان يحصل على صنوف الأحـذية بـاهظة الثمن، المصنوعة بإتقان من "السختيان"، والملونة بأنواع الوشي والزخارف من الخيوط الحرير والذهب والفضة. وقـد تعين على الاسـتهلاك الجماهيري الاكتفاء بنعال الجلد الخشنة، التي تقي بـاطن القَدمَ من النار اللاهبة عند السير على الصخور والرمال التي سخنتها الشمس تسخيناً كبيراً. وقد اقتصر أكثر سـكان الأرياف على الأنسـجة والأغذية التي كانوا يصنعونها بأيديهم، برغم أن البـضائع الجلدية ومنتجات النسيج في أسواق المدن كانت تذهل الأجانب بـوفرتها وتنوّعها.

وبرواج كبير كانت تتمتع منتوجات السراجين وصانعي عُدَّة الخيل، الذين كانوا يصنعون طقوم الخيل والإبل، ومختلف صنوف السروج اللازمة لامتطاء ظهور الخيل، و الإبل، والبغال، والحمير. وكانت السروج المصممة للفرسان الأثرياء، والوجهاء تحاك بالحرير الملون، كما كانت تُزخرَف بالشارات المعدنية وباللآلي والأحجار الثمينة أيضاً.

وقد بلَغت الحرف المختصة بصناعة المعادن مستوى رفيعا، وحظيت باستهلاك واسع النطاق وأهمها صناعة الأسلحة والآنية. وكانت منتجات صنّاع الأسلحة الحاذقين (السيوف والرماح والتروس والدروع والزرود والخُوَذ) ترد لتسليح قوات الخليفة. واشتهرت على نحو خاص السيوف الدمشقية الفولاذية، التي كان يصنعها صياقلة يحتفظون بسّر الطريقة الخاصة في صبها وصقلها.

وكانت أدوات المائدة في بيوت ميسوري الحال تتألف، في الجوهر، من صنوف الآنية المعدنية (وخصوصاً النحاسية) مثل الصحون والأقداح والأباريق والدوارق. كما أن المصنوعات الزجاجية السورية، هي الأخرى، استُخدمت استخداماً واسعاً في الحياة البيتية.

وكان سكان القرى وفقراء المدن يستعملون الآنية الطينية والخشبية. وفي مقابل ذلك، كانت الأشربة، في قصور الخلفاء، تُقدَّم في آنية ذهبية وفضية وتتميز غالباً بصنعة مُتقَنة. إن الحرف الفنية (بما في ذلك صناعة المجوهرات) قد تطورت تطوراً كبيراً، ملبية بذلك أذواق ونزوات وبذخ سلطة المالكين والأثرياء.

وقد ساعد على تطوّر الإنتاج الحرفي كثير من العوامل الاقتصادية: وفرة المواد الأولية الواردة من المناطق الواسعة المهتمة بتربية الماشية، التي كانت تسكنها القبائل الرحّل (مثل الجلود، والصوف)؛ والزراعة المتقنة للمزروعات التكنيكية؛ وتعدين واستخراج الثروات الطبيعية وكانت السفن البحرية والنهرية، وقوافل الإبل تنقل سبائك الفضة من إيران، وخصوصاً من مناجم جبال غيندوكشا، والذهب من المغرب ومن النوبة والسودان، والنحاس من مشارف أصفهان، والحديد من إيران وآسيا الوسطى وصقلية. و إلى بغداد والمدن الكبيرة الأخرى ذات العدد الوافر من الصنّاع والحرفيين وفضلاً عن ذلك، كانت ترد من أفريقيا الصنوف الثمينة من الخشب، والعاج، التي كان الصنّاع المتفنّنون يصنعون منها آيات الترف التي كانت تزيّن مساكن وحياة ممثلي الطبقة الحاكمة.

وكذلك بلغت الحرف المرتبطة بصناعة المنتوجات الغذائية تطوراً كبيراً لاسيما الحلوى، المصنوعة من الطحين والفواكه بالعسل وسكر القصب. وكانت أدوات الزينة والتجميل المختلفة، وصنوف العقاقير والأدوية تحظى برواج كبير.

وفي الإنتاج الحرفي كان الصنّاع الأحرار هم الكثرة الغالبة، وإن استمرّ استخدام العبيد. وكان أرباب الحرف من العبيد يتعرّضون للاستغلال الكثيف في المشاغل العائدة الى الدولة، وعند الاقطاعيين، والتجّار. وكان الصنّاع الأحرار يعملون اعتيادياً في مشاغلهم وفي أسواق المدن، مستخدمين قوة العمل، وحذق ابنائهم واقاربهم الآخرين، وأحياناً العبيد العائدين لهم. وكانت مصانع الحرفيّن في الأسواق تنتظم صفوفاً خاصة، وكان يعمل في كل صفّ منها أرباب حرفة مستقلة عن الحرف الأخرى. وغالباً ما كانت الحرفة لا تتميّز عن التجارة. فكان منتج البضاعة يبيعها للمستهلك في مشغله ذاته. ولا يعرف شيء عن تنظيم الحرفييّن في الحقبة موضوع الدراسة. أما منظمات الحرفيين، المماثلين لأرباب المشاغل الأوروبية الغربية، فلم تظهر في أرجاء الخلافة إلا في وقت متأخر جداً.

ولم تكن مدن الخلافة حربية -إدارية فحسب، بل كانت أيضاً مراكز اقتصادية وثقافية مهمة جداً في بعض أقطار الخلافة ومناطقها. ووفقاً لتعريفات الجغرافيين العرب والمسلمين في القرون الوسطى كان يمكن أن تسمّى مدينةً النقطة والمأهولة التي يوجد فيها مسجد، وقصر للوالي، وحمام، ومدرسة، وخان (فندق) ومستشفى، وميدان (ساحة)(*) وفي المدن الكبيرة كانت هذه البسنايات، والمعاهد والمؤسسات تعدّ بالعشرات بل بالمئات.

ويجدر بنا أن نأخذ في حسابنا، أنه خلافاً لأوربا الغربية في القرون الوسطى المتقدمة، كانت الضيعة الإقطاعية في أقطار الخلافة لا تمتلك البتّة سيطرة اقتصادية أو سياسية على المدينة. ومع ذلك أيضاً، كان الإقطاعيون ايضاً في الخلافة العباسية لا يعيشون في ضياعهم، وإنما في المدن. وقد كان للدور الاقتصادي لمدن الخلافة أهمية خاصة للعلاقات النقدية المتطورة، في ظروف النظام المتطوّر للحرف والتجارة.

وكانت العاصمة بغداد أكبر مدينة في الخلافة العباسية، وكان مؤسسها هو الخليفة المنصور، الذي منحها اسمها الرسمي (مدينة السلام)، وسماها شعبها "مدينة المنصور". وقد أسّس المنصور بغداد في عام ٧٦٢، على ضفة دجلة اليمنى، إلى الشمال من قناة "السراط" الكبيرة، التي كانت تصل هذا النهر بالفرات. وبأمر المنصور دُفع لبناء العاصمة الجديدة سكان ليس بلاد ما بين النهرين والعراق فحسب، بل كذلك سكان سوريا وإيران، وقد بلغ عددهم على وفق المعطيات العربية التقليدية مائة ألف. وفي العام التالي بعد التأسيس، في عام ٧٦٣م، نُقلت الى بغداد من الكوفة خزينة الدولة، ونقلت كذلك مؤسسات الحكومة (الدواوين). وقد أنجز بناء "مدينة المنصور" في عام ٧٦٦م. كانت هذه هي "المدينة المدوّرة"، المحاطة بسورين محصنين من الآجر، وفيما بعد، أقيم السور الثالث، الخارجي، الذي حُفر وراءه خندق مليء بالماء دائماً.

وفي القسم المركزي من المدينة، المحاطة "بسور داخلي"، كان قصر الخليفة الذي بات يسمى "الباب الذهبي" أو "القبّة الخضراء"، لأنها كانت قد بُنيت قبة كبيرة مكسوّة بمضلّعات الفيروز، على قاعة العرش في القصر. ومع القصر بُني مسجد. وعلى مبعدة من القصر أقيمت البنايات الحكومية، وثكنة حرس الخليفة، وقصور المقربين من عائلة الخليفة، واعيان الدولة. وكان أبعد المباني عن القصر مبنى السجن. وكانت الأبواب الأربعة (باب البصرة، وباب خراسان، وباب الشام، وباب الكوفة) تصل ما بين مركز المدينة وقسم آخر يقع ما بين السورَين "الداخلي" و"الأساس". وقد رُحِّل وأسكن بأمر المنصور في الأحياء سكان النقاط المختلفة المأهولة، التي تقع على مسافة غير بعيدة من المدينة التي بُنيت من جديد. وهنا أسكن أرباب الحرف والصنّاع والتجار القادمون من مدن أخرى، الذين أغراهم واجتذ بهم وعد الخليفة بتقديم التسهيلات الخاصة في الرسوم والضرائب إلى سكان العاصمة الجديدة.

ويبدو، أن الخليفة لم يبرّ بوعده لسكّان العاصمة، وذلك لأنهم منذ بدء سكناهم في بغداد أظهروا غضبهم وسخطهم. ودون الركون التام إلى متانة "السور الداخلي" وخشية من الارتحال إلى ما وراءه تحاشياً لمواجهة احتجاج السكان العارم، أمر المنصور، بعد بضع سنوات من سكن العاصمة، بإخراج الحرفيين، والتجار الصغار الساخطين وراء أسوار المدينة، وبإسكانهم ضاحية الكرخ. وعند ذلك أمر الخليفة بأن يكون سوق القصّابين المهجرين بعيداً عن أسوار المدينة. وقد برّر أمره بأن القصّابين ميّالون إلى الشغب، ويملكون في أيديهم الحديد القاطع.

إن بغداد، التي اكتسبت أهمية استثنائية في اقتصاد الدولة العباسية الواسعة، قد تعاظمت بسرعة، وقد تحوّلت في القرن التاسع إلى أحد المراكز العالمية الكبيرة للإنتاج الحرفي والتجارة، وكانت المدينة المتسعة باطراد تحتلّ رقعة واسعة على ضفة دجلة اليسرى أيضاً، حيث أسكن الحرفيون الكثيرون، واقيمت الأسواق الضخمة المُفعَمة بالحيوية. أما جانب الضفة اليمنى من المدينة فكان يتصل بالضفة اليسرى بواسطة جسر من الصنادل. وقد اكتسبت بغداد، كذلك، أهمية قيادية لكونها مركزاً ثقافياً للخلافة. فقد أصبحت مركز اجتذاب، وملتقى أفضل المثقفين الناطقين بالعربية، وخصوصاً منذ أيام حكم الخليفة المأمون.

وفي الوقت ذاته كان كثير من الفقراء بلا مأوى يعيشون عيشة غاية في البؤس والفقر المدقع وعلى وجه الخصوص، كان المشرّدون والمعدَمون الذين تكدسوا في الأسواق الكبيرة، وفي أروقة المساجد الرئيسة، وفي منطقة الميناء النهري التي ربما كانت أشدّ الأماكن حيوية في العاصمة. وكان المعوزون، المدقعون، وحثالات المجتمع في

بغداد يقتاتون بالأعمال التافهة العرضية، وبالتسوّل والاستجداء الملحاح، والسرقات، وأحياناً باقتراف الجرائم، وفي مثل هذا الوسط انتشرت أسوأ ألوان الدعارة.

وكانت ثمة مدينة مزدهرة تنشط فيها الحياة التجارية، وهي مدينة البصرة، التي عدت الباب التجاري الجنوبي للدولة العباسية.

التجارة:

إن الموقع الجغرافي الوسط للدولة العباسية على مفرق الطرق التجارية العالمية، التي كانت ترد عبرها بضائع أقطار الشرق الأقصى والهند الى أوربا، قد حدّد الأهمية البارزة لهذه الدولة في التجارة العالمية. ولكن ما كان يتمتع بالأهمية الأكبر، لاقتصاد الخلافة، هو العلاقات التجارية بين الأقطار المختلفة التي كانت تؤلف كيان هذه الدولة الواسعة، والواقعة بين المحيطين الكبيرين: الهندي والأطلسي، والتي كانت تغتسل بأربعة بحار -المتوسط، والأسود، والأحمر، والبحر في خليج البصرة. وكانت قاعدة التبادل التجاري النشيطة الواسعة هي الإنتاج الحرفي المتطوّر والاستغلال المتقن للثروات الطبيعية.

لقد كانت المدن الكبيرة نقاطاً هامة للتجارة البحرية وتجارة القوافل، ففيها كانت الأسواق الحاشدة تجذب المشترين والتجّار على حدّ سواء، أما المخازن فكانت مليئة بالبضائع المحلية وبضائع ما وراء البحار أيضاً. وكانت أنسجة الكتّان المصرية ممكنة الاقتناء في أسواق المدن ليس في افريقيا فحسب، وإنما في آسيا، وحتى في أوربا. وكانت مصنوعات الحرير والزجاج تحظى بالرواج الكبير في كل مكان، وكذلك القول عن الأسلحة والآنية المعدنية. ومن غربي إيران كانت ترد صنوف السجّاد والبسط المطرّزة. ومن الأحواز كان يؤتى بالسكر. وفي هذه المنطقة بالذات وفي منطقة الكوفة كان يُزرع القطن. وكان النحاس يُستخرَج في إيران، وآسيا الوسطى، وأرمينيا، وأفريقيا (تونس)، والأندلس. وكان شمال غربي ايران غنيا بالقصدير والرصاص. وفي هذا البلد كان الزئبق يُستخرَج، في منطقة اصطخر. وكان جنوب غربي إيران وشمال العراق (ما بين النهرين) مشهورين بالنفط والإسفلت. ومن جنوبي ايران كانت ترد منتوجات مرتفعة الثمن مثل التيلة، والأفيون.

وتغَلغَلت القوافل التجارية من شمال افريقيا ومصر في الأرض الافريقية فبلغت منطقة بحيرة (تشاد)، وغالباً ما كانت تبلغ خط الاستواء. وتعود رجال القوافل العرب ارتياد الطرق المطروقة، والسبل الممتدّة عبر الغابات، والبطاح، والبوادي في المناطق الجنوبية من الصحراء. وأغرتهم واجتذبتهم إمكانية الحصول على الأرباح الوافرة والسهلة في التجارة مع سكان افريقيا الغربية، الذين كانوا يبادلونهم الملح لقاء الذهب، وكانوا يشترون، على نحو مربح، الطوابير الكبيرة من العبيد. وفي تيموكتو وكاو(*) كانوا، الى جانب الذهب، يحصلون على العاج. ومن افريقيا "السوداء" كانوا يجلبون، كذلك، ريش النعام، والفراء، وجلود الحيوانات المفترسة التي كانت تجوس، بمقادير كبيرة، خلال الغابات البكر والبراري المدارية.

وقد تطورت تطوراً كبيراً، كذلك، التجارة البحرية في المحيط الهندي والبحر الأبيض المتوسط. وفي المحيط الهندي كان ربابنة السفن ينجزون، بثقة، السفرات البعيدة. ومنذ القرن الخامس كانت السفن تصل الحيرة والأبلة، آتية من البحر الأحمر، والهند، والصين.

وفي عهد الخلافة العباسية، كانت البصرة قد اكتسبت الأهمية التي تنبغي لواحد من الموانئ الكبيرة والهامة في التجارة البحرية العالمية. ولم يكن في استطاعة ميناء آخر منافستها في ذلك سوى ميناء (صحار) في عُمان، في ما بعد تحولت أهمية هذا الميناء الى ميناء مسقط. وأصبح ميناءً بالغ الحيوية، كذلك، ميناء (سيراف) في كرمان، على الضفة الإيرانية لخليج البصرة.

وحتى القرن الثامن كانت المبادرة في العلاقات التجارية في المحيط الهندي تعود إلى الصينيين، الذين أظهروا من المراس والهمة أكثر مما أظهره التجار الفرس والعرب في ذلك الوقت. وفي ميناء سيراف كانت ترسو السفن التجارية الصينية، التي كان طاقم بعضها يتألف

من ٤٠٠-٥٠٠ شخص وكانت تلك السفن الكبيرة مسلّحة متأهبة للنزال، في حالة مواجهة القراصنة. وعلى ظهورها كانت نافثات اللهب، القادرة على نفث النفط الملتهب.

وفي بداية القرن الثامن كان البحّارة البصريّون العرب قد فاقوا الصينيين والهنود وتخطّوهم في فن قيادة السفن، وفي بنائها كذلك. وفي عهد الحجّاج صار البصريون ينطلقون إلى عرض البحر في سفنهم الخاصة، التي كانوا يستخدمون في بنائها المسامير المعدنية (كان صانعو السفن الأولى لا يعرفون سوى البرشمة الخشبية والحبال).

لقد خبر البصريون جيداً كل الجزر في خليج البصرة، وتفننوا في إدارة الموانئ المناسبة فيها. وبانطلاقهم الى المحيط، فيما بعد، كانوا قد أسّسوا مصانع تجارية في جزر سوقطرة وزنجبار، وعلى سواحل افريقيا الشرقية. ومن افريقيا، كانوا يأتون على ظهور السفن البصرية، بالعبيد السود، والعاج، والخشب الملّون الثمين، والتبر، والأحجار الثمينة. وصار البصريّون، بعد إقامتهم علاقات متينة مع تجار سيلان*، ينقلون من موانئ هذه الجزيرة العاج والأحجار الثمينة. وعلى سواحل الهند الغربية (التي تدعى مالابار)، كان عدد من المصانع، التي كان التجار المسلمون من رعايا الدولة العباسية، يعدّون فيها بالآلاف. لقد أقاموا هناك الجوامع والمساجد، كما كانت دعاواهم الشرعية ينظر فيها قضاة مسلمون. ومن الهند إلى دولة الخلافة في بغداد كانت تُنقَل التوابل ومصنوعات النسيج، التي كان في عدادها أرق الأنسجة الحريرية. وكانت مصانع التجار العباسيين منتشرة على ساحل كورماندل، أي على الساحل الجنوبي الشرقي للهند. والى هناك من سيراف، كانوا سنوياً ينقلون الآلاف من رؤوس الخيل.

إن المغامرات الأسطورية للسندباد البحري، التي دخلت في مجموعة "ألف ليلة وليلة"، إنما كانت تعكس العمل التجاري للتجار العباسيين في البحار الجنوبية. وكما هو مُفترض، فإن السندباد بلغ مدينة (كال) في (ملقا). ومن شبه الجزيرة هذه كانوا ينقلون الذهب والقصدير. وكان التجار المسلمون في سومطرة، بخاصة، يحصلون على بضائع كثيرة ثمينة جداً، كما كانوا يحملون منها الذهب، والتوابل، والمواد العطريّة، والنباتات الطبية، والكافور. وفي بورينو الشمالية كانوا يحصلون على اللؤلؤ، أما في جزر الفيلبين-فعلى الذهب والعاج. وهذه الجزر بالذات كانت على الأرجح ذلك البلد الشرقي الأسطوري البعيد (واق واق) الذي كانوا يعتقدون، خطأ، أنه اليابان. وهذا البلد بحسب رآي آخرإنما كان جزيرة في الصين. وقيل إنه في هذه الجزيرة كانت تنمو شجرة خفيّة، كانت ثمارها نساءً حية[٤].

ومنذ أواسط القرن الثامن كان التجّار العرب والفرس قد عرفوا الطريق إلى الصين، التي أبحروا إليها، في البداية، على ظهور الجونكات(*) الصينية، العائدة من البصرة إلى وطنها. وسرعان ما أصبح المسلمون الأجانب يؤلفون سكان عديد من الأحياء في كانتون (كان رفو) حيث ارتفعت المنائر في الجوامع، وكان القضاة المسلمون، يقضون بين المسلمين بموجب أحكام الشريعة. وفي عام ٧٥٨، كان السكان الأصليون في كانتون قد قاموا بانتفاضة ضد السلطات الإمبراطورية. ولإخمادها، بعثت حكومة بوغديخان فصائل المرتزقة الفرس، المتواجدين في خدمتها. آنذاك، وأتتمر رعايا الخلافة العباسية الذين كانوا يعيشون في هذه المدينة الكبيرة، مع فصائل القمع، وأعملوا السلب والنهب في المدينة، مشعلين الحرائق، وحملوا ما نهبوه على ظهور سفنهم، وفرّوا فيها إلى موانئهم في بلدانهم. ولكن بعد حقبة قصيرة من الزمن، عاد التجّار العرب فاستوطنوا ميناء كان -فو(كانتون) من جديد، وتوغّلوا ببضائعهم، برخصة من الحكومة الصينية إلى المناطق الداخلية في الصين. ومن هذه البلاد إلى دولة الخلافة، كان التجّار المسلمون يحملون الخزف الصيني الشهير، والأنسجة المتقنة الصنع، الزاهية الألوان، والحرير.

إن وجود العلاقات التجارية البحرية بين دولة الخلافة العباسية والصين لم يُؤدِّ إلى إيقاف حركة قوافل الإبل في "طريق الحرير" الشمالي، المفتوح منذ الزمن القديم. وفي هذا الطريق، كانت البضائع

الصينية تمرّ عبر سمرقند، وبخارى، والريّ، وهمدان الى بغداد. ومن هناك، من عاصمة الخلافة، كان طريق واحد يمتدّ، متشعباً في إحدى شعبتيه إلى الغرب، إلى طربزون، حيث كانت البضائع الشرقية تُنقل على السفن التجارية البيزنطية الى الموانئ السورية في البحر الأبيض المتوسط. وكانت ثمة شعبة أخرى تقود إلى الجنوب الغربي، إلى شبه جزيرة العرب وافريقيا، عبر الكوفة، والمدينة،ومكة، وموانئ البحر الأحمر، أو عبر برزخ السويس وفي "طريق الحرير" من السفن الى بلدان الخلافة كانوا ينقلون الخزف والأنسجة، بما فيها الحرير.

وفي المدوّنات التاريخية لسلالة تاي الصّينية المالكة (٦١٨-٩٠٧) بقيت أسماء الخلفاء العباسيّين، وقد حُرِّفت تحريفاً قوياً في الترجمة الصينية. غير أن مسألة تبادل السفارات الرسمية بين الخلافة البوغديخانيين(*) ظلت حتى الآن دون إضاءة كافية. وفي المصادر المكتوبة باللغة العربية لم تبقَ معلومات معتمَدة حول استقبال سفارة صينية في بغداد أو في سامراء. ومن الممكن أن بعض التجار الواصلين إلى الصين من دولة الخلافة العباسية قد ادعوا أنهم سفراء رسميّون للخليفة لا لشيء إلا ليحصلوا على التسهيلات الكمركية، وليمنعوا نهب بضائعهم من قبل السلطات المحلية.

أما العلاقات التجارية بين دولة الخلافة العباسية والهند، وبينها وبين اندونسيا والصين فقد تركت أثراً هاماً في الأدب المكتوب بالعربية. وفي القرن التاسع، حين كانت الطرق البحرية إلى هذه الأقطار البعيدة غير المكتشفة حتى ذلك الوقت، قد استوعبت من قبل التجّار العرب والفرس، فإن كثيراً من القصص والحكايات قد ألفت، وهي الحكايات التي يدعوها الأكاديمي كراجكوفسكي "أساطير جغرافية". إن هذه القصص التي تضمّ معلومات صحيحة عن الأقطار والشعوب الأجنبية، مختلطة بمبتكرات الخيال الجامح، قد وجدت كثيراً من الراغبين في سماعها وترديدها في البصرة وسيراف وبغداد(٥).

وتعود قصص "التاجر سليمان"، إلى أواسط القرن التاسع وقد ألفت في القرن التالي. لقد قام هذا الباحث المثابر عن الأرباح، برحلات عدة ذات غايات تجارية إلى الهند، ومن هناك عبر مضيق ملقا إلى الصين. "وقد قدم في هذه القصص وصفاً حياً للسواحل، والجزر، والموانئ والمدن المختلفة مع سكانها، ومنتوجاتها، وبضائعها التجارية"(٦). وبعد (٢٠) عاماً، أتم ابن وهب قصص سليمان، وهو تاجر -رحّالة آخر، مكث ردحاً من الزمن في سينانفو. وبعد وقت قصير من مكوثه في هذه المدينة، التي كانت عاصمة الصين في عهد سلالة تان، أبيدت جالية التجار العرب في كانتون في عام ٨٧٨م في غمار الحرب الفلاحية الكبيرة. وفي ما بعد، لم يتوغل التجار العباسيون في الشرق أبعد من ملقا. ولم تُستأنف علاقات الشرق العربي بالصين إلا في القرن الثالث عشر. وفي مقابل ذلك، كان هؤلاء التجّار قد طوّروا العلاقات التجارية مع بلاد (كخمر) - كامبوديا- التي كانوا يحملون الفضة منها.

لقد كان السفر بحراً إلى الصين سهلاً ومنتظماً حتى أن بعض سكان آسيا الوسطى كانوا يفضّلون الاتجاه الى هذا البلد البعيد سالكين الطريق الجنوبي البحري. وهكذا، فإن أحد تجّار سمرقند توجه الى هناك عبر العراق، مغادراً البصرة بحمولة من البضائع الثمينة، وحالما وَصَل (ملقا)، أغذّ السفر صعداً إلى الصين، على ظهر سفينة صينية(٧).

أما تجارة دولة الخلافة العباسية مع بيزنطة فقد أعاقتها، لحد كبير، الحروب العربية- البيزنطية الكثيرة وعلى أي حال، لم ينقطع التبادل التجاري بين هاتين الدولتين الكبيرتين فقد كانت "سفن الروم" تزور دائماً ميناء (طربزون)، الذي كان الباب التجارية الشمالية للخلافة. لقد كانت بيزنطة بحاجة إلى البضائع الشرقية، التي لم تكن تستطيع الحصول عليها إلا عن طريق التجّار المسلمين.

لقد كان الأسطول التجاري العربي هو السيّد في البحر الأبيض المتوسط. وقد لعبت مصر في التجارة في هذا البحر دوراً بالغ الأهمية، مثلما لعب العراق في التجارة في المحيط الهندي. لقد كانت لوادي النيل علاقاته التجارية مع المغرب، والأندلس، وأوربا الغربية. وعلى أي حال، فإذا كان التبادل التجاري للأندلس

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

والمغرب مع مصر –وعبرها مع المنطقة الآسيوية لدولة الخلافة العباسية، –منتظماً، فإن التبادل التجاري مع أوربا الغربية كان له طابع عَرضي، على الأرجح. وثمة فكرة صاغها المؤرخ البلجيكي هنري بيرن، مفادها أن الفتوحات العربية وتشكيل دولة الخلافة قد عرقل العلاقات الاقتصادية، القائمة في العصر القديم بين الشرق وأوربا الغربية، الأمر الذي أدى إلى عزل المنطقتين الواسعتين، الواحدة عن الآخرى[٨]، إن هذه "النظرية" المقبولة للغاية، التي تقدّم بها أ.بيرين، قد جابهت الشكوك من جانب مؤرخي القرون الوسطى الأوربيين. ومع ذلك فإن الاستنتاجات الأساسية لهذا العالم، المستندة إلى مادة وثائقية كبيرة ممتعة، تستحقّ الاهتمام الجدي. وعلى نحو خاص، فإنه مما لا يستدعي شكاً ان التجارة البحرية للسوريين مع مملكة (آل ميروفينغ) الإفرنجية في القرنين الخامس والسادس كانت منظمة، ناشطة جداً، ولكن انقطعت تماماً بعد إقامة الدولة العربية في سوريا ولم تتطوّر في عهد عائلة (كارولينغ) المالكة التي حكمت في عام ٧٥١م، أي في الوقت ذاته، الذي جاء العباسيّون فيه إلى السلطة.

وباتصال مباشر مع هذه العلاقات التجارية "الإسلامية – الفرنجية" ينهض سؤال حول العلاقات الدبلوماسية بين الخلافة العباسية ودولة الإفرنج. وقد بين المؤرخون البرجوازيين الأوربيين الغربيين، أن المصطلح عليه (استناداً إلى المؤثرات المتعددة من القرون الوسطى الكاثوليكية) أن العلاقات الدبلوماسية "الاسلامية– الفرنجية" كانت قد أقيمت في عهد الملك (ببين القصير) ٧٥١– ٧٦٨، معاصر الخليفة المنصور، وتلقّت تطورها الكبير أيام كارل الكبير (٧٦٨– ٨١٤)، معاصر هارون الرشيد. والأرجح من كل هذا، أن مثل هذا التمثيل قد أقيم في مرحلة الحروب الصليبية، وكان له لونه الإكليركي المحدّد تماماً –الذي تمثلّ فيه كارل الكبير في صورة الحاكم المسيحي، الذي اعترف خليفة المسلمين بحقوقه (حاكما) للأماكن المقدسة في فلسطين.

وقد أثبت الأكاديمي ف.ف. بارتولد في دراسة "كارل الكبير وهارون الرشيد"[٩] بطلان هذا التمثيل المتعصّب. ويلفت بارتولد أنظار قرائه، في هذه الدراسة، إلى الصمت التام للكتّاب العرب والمسلمين تجاه علاقات كانت قد نشأت بين الخليفة العباسي والإمبراطور كارل الكبير.

وفضلاً عن ذلك، لم يعرفوا أي شيء عن هذا الإمبراطور في دولة الخلافة، بل لم يكن اسمه معلوما. وفي الوقت عينه، فإن (آينهارد) ومدوّني تواريخ الإفرنج الآخرين لا يتحدّثون بشي عن الخلافة، ولا يعرفون اسماء الخلفاء. وكل ما في الأمر، أن بعض المسيحيّين من غرب أوربا قد بلغوا فلسطين حجاجا، وزاروا أور شليم (القدس) و "الأماكن المقدسة" الأخرى في هذه البلاد. وفي سبيل الاهتمام بالحجّاج والعناية بهم، كان كارل الكبير قد أقام علاقات ودية مع بطريرك القدس، وقد تحققّت هذه العلاقات المتبادلة عن طريق الرهبان الشرقييّن والغربيين، الذين كانوا، من وقت لآخر، يزورون كلاً من دولة كارل، وفلسطين.

وإلى جانب الحجّ إلى "الأرض المقّدسة"، فإن عاملاً آخر كان يربط أوربا الغربية بالشرق وهو التجارة، التي كانت كلها في أيدي التجّار اليهود، الذين كان يعرف بعملهم الجغرافيّون العرب والمسلمون. لقد كان تجّار أوربا الغربية هؤلاء يأخذون معهم الى اقطار الشرق العبيد والجواري وأنواع الفراء، والسيوف. وعادة، كانوا ينقلون بضائعهم في البحر الأبيض المتوسط، عبر مصر، الى البحر الأحمر، وابعد من ذلك: إلى الهند والصين وكانوا يحملون بضائع ثمينة للغاية، من الشرق الى أوربا بعضها المسك، ونبات الندّ الطيّ، والتوابل، والكافور. ومستهلكو هذه البضائع النادرة هم بالدرجة الأولى أقرباء كارل ورجال بلاطه. وكان هؤلاء التجّار يتمتعون بالتكريم والثقة في بلاط كارل. وقد عهد إمبراطور الفرنجة إليهم بمهمة دبلوماسية –استعلامية (تجسسية). ومثل هذه المهمة، مَثَلاً، كان قد عُهد بها إلى التاجر اسحاق، الذي توجّه، عند نهاية القرن الثامن، إلى الشرق، وأمضى هناك بضع سنين. وقد عاد اسحاق عبر تونس وصقلية الى ايطاليا، وحمل معه فيلاً، وهدايا

أخرى زعم أن الخليفة هارون الرشيد بَعَث بها، وادعى انه رسول الخليفة. وقد غطّى على أخبار هذا السفير الدعي والذي دعي بـأبي العباس، إن هذا الحيوان الغريب، الذي لم يُرَ من قبل في أوربا، كان يجمع الحشود الضخمة في كل مكان. وفي اجتياز ايطاليا عانى الفيل كثيراً من المتاعب والصعوبات في عبور الألب. وفي عام (٨٠٢) تكشف في (آخن)، إلى حيث كان صاحبه قد وَصَل بـه إلى بلاط كارل الكبير.

وقد خُلّد الفيل في سجلاّت الفرنجة. وفي عام ٨١٠ نَفَق الفيل فجأة لسبب غير معروف[١٠].

أما الهدايا التي زُعم أن الخليفة بعث بها الى الإمبراطور (الساعة المائية بـتماثيلها، وخيمة الحرير، وسوى ذلك)، فإنه لم يمكن الاحتفاظ بها، وذلك لأنها في الواقع لم تكن موجودة. وقد كتب الباحث الكبير، المختص في تاريخ الفن، يا.إي. سميرنوف يقول، إنه لا يمكن العثور على أي دليل مادي للعلاقات بين كارل الكبير وهرون الرشيد.

وضد استنتاجات ف.ف. بارتولد وَقَف الاختصاصي الشهير بالدراسات البيزنطية أ.أ. فاسيليف، في ماكتبه في "السجل البيزنطي"[١١] والحق أن هذا العالم، في معرض اتهامه بارتولد بالمغالاة في "نزعة الاغراق في النقد" إنما كان يدافع عن الآراء القديمة، التقليدية، المشبَعة بـاتجاه إخضاع العلم للدين. وفي الردّ عليه كتب بارتولد مقالته الثانية "حول مسألة العلاقات بين المسلمين والفرنجة"[١٢]. وبعد هذه المناقشة على صفحات المجلات العلمية، أثبتت مقولة بارتولد أسطوريّة العلاقات الدبلوماسية بين العباسيين وآل كارولينغ بشكل قاطع.

أما التجارة مع أوربا الشرقية فلم تكن بعد قد تطوّرت. ولكن كانت الطرق الممتدة عبر بحر الخزر وحوض الفولغا الأدنى إلى خاقان الخزر معروفة جداً، وقد أقيمت العلاقات مع مملكة كييف الروسية. وفي (ايتيل) الخزري كان التجّار يحصلون على أرفع أنواع الفراء، وفي الوقت ذاته كان الفرو السيبيري يباع في التبت. وكان التجّار المسلمون يتلقّون من الروس ومن سلافييّ مملكة كييف، (الكهرمان)، الذي كانوا يحملونه من سواحل بحر البلطيق، في الطريق التجاري "من الوَرَنك إلى اليونان". ومن أوربا الشرقية إلى دولة الخلافة كان يُؤتى بالعبيد البيض، والنحاس والشمع، وكان الأخير يُستعمل لصنع الشموع.

نظام الدولة:

كانت الخلافة العباسية في القرنين الثامن والتاسع، من حيث تركيبتها وفكرها الرسمي، حكماً مطلقاً، إقطاعياً ثيوقراطياً. ووفقاً لمعايير قانون الدولة، جمع الخليفة العباسي في شخصه بين وظيفتين: وظيفة الإمام الاعلى ووظيفة الأمير الأعلى، أي انه كان يقبض تماماً على أعنة السلطتين الروحية والزمنية معاً. لكونه رئيساً للملّة الإسلامية، وخليفة ونائباً لرسول الله، بل ممثل الله على الارض، كان الخليفة يعد المالك الأعلى لكل الأرض والماء في الدولة. لقد كانت لديه سلطة الحاكم المطلق التي لم تتحدد بشيء ما عدا سيف الحراس (في عهد أخلاف الخليفة المأمون).

وفي القرن الأول للحكم العباسي كان حكم الخليفة المطلق واقعاً سياسياً فعلياً. وكانت الفئة العليا في الطبقة الحاكمة، التي تؤلف الدائرة المباشرة للخليفة، تسعى لانتهاج السياسة المُمَركَزَة. أما عمال الخليفة في الولايات، والقوّاد العسكريون فكانوا يُعَيّنون من قبل الخليفة مباشرة، ويخضعون لأوامره وحدها. وكان الخراج، والضرائب، وسائر صنوف الرسوم. والعوائد ترد من رعيّة الدولة إلى بغداد، مكوّنة الجزء الرئيس من خزينة الدولة. اما اختلاس الإيرادات الضرائبية من قبل الولاة والمسؤولين الآخرين، فكان يُنظَر إليه عملاً غير شرعي، يستوجب القصاص.

لقد أضاعت الأرستقراطية العربية وضعها المتميّز، وكانت مضطرة لأن تقتسم السلطة والعوائد مع الإقطاعيين الفرس الكبار. ومن هذا الوسط كان أعيان الدولة الكبار -الوزراء، إن مثل هذا المنصب واللقب لم يكن في العهد الأموي. وقد أنشأه المنصور،

المنطلق في ذلك من نظام الحكومة أيام الساسانيين. وفي مدى نصف قرن شغل البرامكة هذا المنصب الحكومي الرفيع، وكان هؤلاء ممثلي الأرستقراطية الإقطاعية الفارسية، والمزارعين الكبار من مقاطعة بلخ، وأخلاف الكهّان البوذيّين في هذه المدينة.

إن كبير الوزراء، الذي عُد مساعد الخليفة الأول وأكثر مستشاريه اعتماداً، كان يتحكّم بجهاز مركزي إداري –مالي، وقوة عسكرية، وإدارة لمراقبة الدولة. ولم يكن عمله، ما عدا عسف الخليفة، ليتحدّد بشيء. وبصفته أميناً على ختم الخليفة، كانت له كل وظائف السلطة العليا. ففي ذلك الوقت كانت الأوامر الحكومية، والوثائق الأخرى، الصادرة عن الخليفة، لا تحمل توقيع الخليفة بإمضاء يده، بل حلّ محلّه ختم الخليفة عليها. لقد كان الوزير يضع الختم على الوثائق، دون أن يسأل إذن سيده، وكلّ ما كان عليه هو تقديم تقريره في كل مرة يستخدم فيها ختمه. وهكذا، كان الإقطاعيّون الفرس في شخص البرامكة قد استحوذوا على الخلافة العربية تحت سيطرتهم.

وكما لاحظنا من قبل، أن هارون الرشيد قد حرم البرامكة السلطة والحياة بطريقة ماكرة. وقد جاءت في الأدب الفني رواية رومانتيكية لا أساس لها عن العباسة أخت الرشيد مع الوزير جعفر بن يحيى البرمكي. وتقول الحكاية، إن هذه الأميرة المتنوّرة، التي تزوّجت وترمّلت ثلاث مرات، كانت تُسهم غالباً في الأماسي المتعة وخلوات المنادمة، التي يحضرها الخليفة ووزيره. ومن أجل تفادي الإخلال بأركان الشريعة، التي تمنع، حضور امرأة في محضر رجل لا ترتبط معه بعقد زواج، أو بعرى القرابة الدموية، أمر الخليفة بإجراء زواج صوري بين أخته ووزيره. وحين علم الخليفة أن هذا الزواج أصبح حقيقياً، سخط أشدّ السخط وأمر، دون تروّ، بإعدام جعفر، بل البرامكة الآخرين أيضاً. إن عدم مصداقيّة هذه الحكاية أمر أثبته ابن خلدون[14]، مورداً إياها نموذجاً لسذاجة المؤرخين وسرعة تصديقهم.

إن السياسة المركزية العسكرية –الإدارية كانت غالباً تصطدم بمقاومة عمّال الولايات، والقوّاد العسكريين. وكان نجاح أي منهم يعتمد على عدد أفراد القوة التي يدفع لها هو، وكذلك على الاتصال مع الإقطاعيين المحليّين والمواطنين الأثرياء. وكانت المهمة الأساس لكل والٍ هي الإثراء الشخصي. وأحياناً، كان الأمر يحتاج الى مبالغ كبيرة لتعويض النفقات المتعلّقة بشراء ضمائر الأعيان الكبار في العاصمة، إذ كان يقدم الرشوات، متوصلاً الى التعيين في الوظيفة المربحة. ولذلك، زاد الولاة في الأغلب، ظلماً وعدواناً، مبالغ الضرائب والرسوم التي يجبونها من السكان الخاضعين لحكمهم، مختلسين قدراً كبيراً من الإيرادات الضرائبيّة، ناهبين الأرض، والممتلكات الأخرى غير المنقولة التي كانت تدرّ دخلاً كبيراً. وعمل الخلفاء، ورؤساء المؤسّسات المركزية ما بوسعهم، من أجل صيانة دخولهم، وقمعوا جشع الولاة وانفصاليّتهم بل كانوا محتكمين اذا اقتضت الضرورة، إلى القوة المسلحة، وعلى أي حال، كان الخلفاء ومسؤولوهم في العاصمة في الظروف العسيرة والخطيرة لتمرد سكان الاقاليم، الذي كان يهدّد بالتطويح بالسلطة، يضعون تحت تصرّف الولاة جميع أموال ولايتهم، لأجل إخماد التمرد. وقد وضح في احيان كثيرة عجز الخلفاء، وكانوا مضطرين للتقهقر، حين اكتسبت حركات التمرد وتلك طابع النضال ضد الدولة العربية، في الأقطار غير العربية في رقعة الخلافة. وهكذا قبلوا على مضض تشكيل الدول المستقلة وشبه المستقلة في افريقيا الشمالية، وآسيا الوسطى، وافغانستان وايران.

إن الإدارة، التي كانت تتيح للسلطة المركزية إمكانية الحصول على المعلومات عن نشاط حكّام الولايات، ومراقبتها في الوقت ذاته ، هي إدارة البريد. إن هذه الكلمة ذات أصل لاتيني (وربما فارسي). وفي البداية، كانت هذه الكلمة تعني، في عهد الخليفة معاوية، الفارس الذي كان يحمل مراسلات الحكومة. وفي عهد عبد الملك بن مروان صارت هذه الكلمة تعني مصلحة البريد التي كانت تسهل مراسلات الخليفة مع ولاته، ومع القواد العسكريّين في الولايات والأقاليم. وفي عهد الخليفة المنصور تحوّل البريد إلى أحد

الدواوين الحكومية الهامة، أما رئيسه (صاحب البريد) فقد أصبح مسؤولاً كبيراً ومتنفذاً جداً في بغداد. وتحت إمرته موظفو "محطات البريد" الكثيرة، المبثوثة في سائر أرجاء مملكة الخلافة الواسعة –في المدن، وفي الطرق المسلوكة منذ أيام الساسانيين، وفي عهد روما وبيزنطة. وفي كل محطة، كان تحت تصرّف رئيسها، على الدوام، السّعاة، وحيوانات الركوب وبسبب الظروف الجغرافية لتلك الاماكن كانت تلك الحيوانات اما الخيل او الأبل أو الحمير. بيد أن التزامات موظفي البريد لم تتحدّد بنقل المراسلات الحكومية. فقد كانوا مُلزَمين بأن يجمعوا في أماكن عملهم المعلومات عن حالة الزراعة، والري الصناعي، وميول السكّان المحليين، وعمل الولاة، وكمية الذهب المسكوك، والعملة الفضية المضروبة في دار العملة المحلية (إن وجدت)، وبأن يخبروا السلطة في بغداد عن كل ذلك. وكانت هذه المعلومات ترد بانتظام، بصورة تقارير مكتوبة، إلى ديوان صاحب البريد. وعلى أساس البلاغات والبيانات التي كان يصنّفها موظفو هذا الديوان، كان صاحب البريد يكتب تقريره يومياً إلى الوزير عن أحوال الدولة . وفي حالة وقوع الأحداث بالغة الخطورة، كان لصاحب البريد الحق في ان يحضر،والوزير، مقابلات الخليفة، دونما عائق.

لقد كان البريد إدارة للرقابة والاستخبارات وبه كان يرتبط المخبرون والعيون والرصاد الكثيرون، من كلا الجنسين، والعاملون سواء في دولة الخلافة، أم في الأقطار الأجنبية. وكانت إعالة هذه الادارة (الديوان) تكلّف الخزينة حوالي ١٥٩ الف دينار.

وكانت محفوظات ديوان البريد وما تضمّ من مسالك وطرق مفصّلة بدقة، هي المادة المعتَمدَة للمؤلفات الخاصة بالجغرافية الاقتصادية من قبيل كتاب "المسالك والممالك".

العلاقات بين الخلافة العباسية وبيزنطة:

حين تولّى العباسيون الحكم كانت السلطة العليا في بيزنطة تعود إلى أباطرة سلالة إلسيفار المالكة (٧١٧– ٨٠٢). وهكذا، فإن الخلفاء العباسيين الخمسة الأولين كانوا معاصري اباطرة هذه السلالة. وكان مؤسس هذه السلالة ليف الثالث إلسيفار (٧١٧-٧٤١)، وهو رجل دولة وعسكريّ بارز، جاء من سوريا، ونتيجة لذلك أتقن اللغة العربية، وكان له تصوّر دقيق عن الأحوال في الخلافة الأموية. وبعد بضعة شهور من تسنّمه العرش، عبرت القوات العربية، التي كانت تحتل نقاطاً ستراتيجية في آسيا الصغرى غيلليسبونت، وحاصرت اسطنبول بمساندة اسطول كبير.

وبعد فَشَل العرب تحت أسوار العاصمة البيزنطية، انتقلت رحى الحروب العربية –البيزنطية إلى آسيا الصغرى، حيث في نهاية عهد ليف الثالث تكبدت القوة العربية الهزيمة عند آكرويون (قَره حصار)، وانسحبت إلى شرقي الاناضول. وفي هذه الاراضي، حتى بداية القرن التاسع، كانت العمليات الحربية تجد تعبيرها في الصدامات على الحدود، وفي الغارات[14].

وفي خلال القرن التاسع، قام العرب بنشاط عسكري كبير سواء على الحدود البرية مع بيزنطة، أو في المنطقة الواسعة للبحر الأبيض المتوسط. وفي الحدود العربية –البيزنطية كانوا يستندون الى منطقة الخلافة المتاخمة للحدود، التي أطلق عليها اسم (العواصم)، الذي يعني المدن "المدافعة" (من الفعل العربي "عَصَمَ"). وكانت أكبر نقطة في هذه المقاطعة هي أنطاكية. وفيما عداهما، في العواصم، كانت توجد مدن (باليس) على الفرات، ومَنبِج، وساموس وللدفاع عن هذه المدن وعن كل المنطقة أمام اعتداءات الخصم المفاجئة، شُيّد عند الحدود ذاتها خط للتحصينات. ومن المدن التي كانت تمتلك أهمية كبيرة مدينة (طارس) الواقعة عند مضيق قلقيلية الجبلي، الذي كان النفاذ ممكناً عبرَه إلى الأصقاع البيزنطية. وقد أطلق العرب على خطّ التحصينات هذا اسم "الثغور" –(الأسنان الأمامية). وقبالة هذا الخط أقام البيزنطيون خط تحصيناتهم. وكان العرب يقومون يومياً تقريباً (ربيعاً وصيفاً وأحياناً شتاءً) بالغارات على أرض بيزنطة. ولم تقترن هذه الغارات بمكاسب اقليمية، ولكنها كانت تسبّب خسارة كبيرة لاقتصاد سكان المناطق المتاخمة للحدود.

وفي عهد الخليفة المنصور والخلفاء بعده لا سيما القريبين من عهده لوحظ في علاقات العرب ببيزنطة السعي لاستغلال المصاعب والارتباكات في دولة الخصم من أجل تشديد سياستهم الخارجية ضدها. وفي ذلك الوقت تولّى السلطة أباطرة سلالة أموريا (عمورية) ٨٢٠- ٨٦٧. وفي عهد أولهم -ميخائيل الثاني كوسنو يازيتشني اندلعت نار انتفاضة شعبية جبارة، ابتدأت في عام ٨٢١ في آسيا الصغرى تحت قيادة فوما السلافي, وقد حاول حكام الخلافة، في شخص الخليفة المأمون، استثمار حركة هذا الزعيم الذي يدعي باللقب الإمبراطوري. وقد وعد فوما الخليفة بالقيام بتنازلات إقليمية في آسيا الصغرى، الأمر الذي حمل الخليفة على السماح له بالتتوّج في إنطاكية العربية. وقد كثر في عموم آسيا الصغرى التمرد والخروج على القيصر وقد شاركت فيه قوميات وطبقات اجتماعية مختلفة. وقد انقلب الاسطول الحربي البيزنطي في بحر إيجة إلى جانب الثائرين، الأمر الذي أتاح لهم اجتياز تراقيا، ومقدونيا، ومحاصرة اسطنبول. ولكن قوات ميخائيل الثاني الذي لقي مساعدة فعالة من جانب النبلاء البلغار، استطاعت أن تصدّ قوات الثوار الكبيرة. وفي عام ٨٢٣ وقع فوما في الأسر وأعدم، وبهذا فشل رهان المأمون عليه.

وفي الوقت عينه كان حكّام بيزنطة قد استطاعوا، على نحو أكثر توفيقاً، استغلال حركة الخرّمية الجبارة، التي شبّ أوارها تحت قيادة بابك -في (٨١٥/٨١٦- ٨٣٧)- (وسيأتي ذكره فيما بعد).

إن العلاقات الودية والتعاون العسكري بين بيزنطة والخرّميين، الذين خاضوا حرباً ناجحة مع الخلافة، كانت هي السبب الأساس للحملات الأربع التي شنّتها قوات الخليفة تحت إمرة المأمون في آسيا الصغرى البيزنطية -في الأعوام ٨٣٠، ٨٣١، ٨٣٢، ٨٣٣"[15].

وبعد قمع الحركة الخرّمية، وإعدام بابك، قامت قوات الخلافة في عام ٨٣٨ بغزوة جديدة في آسيا الصغرى، وبعد حصار طويل استولت على مدينة عمورية المحصّنة جيداً. وقد كان هذا النجاح العسكري من الأهمية البالغة بحيث أنه منح الخليفة المعتصم تبريراً كافياً لرسم الخطط اللازمة لحملة على القسطنطينية (اسطنبول). لكن تحقيق هذه الخطة على أي حال أمر لم يتيسّر تنفيذه.

وفي منطقة البحر الأبيض المتوسط عانت بيزنطة هزائم عسكرية، وخسائرإقليمية في الصراع مع العرب. وفي عام ٨٢٥ فقدت بيزنطة كريت، التي كانت لها أهمية تجارية كبيرة. فقد استولى على هذه الجزيرة الخصبة، العامرة بكثير من المدن والقرى، القرطبيوّن المطرودون من الأندلس عام ٨١٤، بعد خروجهم على الأمير الأموي، الحَكَم الأول.

لقد اجبر سكان ضواحي قرطبة هؤلاء من شبه جزيرة البيرينيه (الأندلس) إلى الشرق، واستوطنوا مصر، وكان عددهم نحو خمسة عشر ألفا، غير النساء والأطفال. وبعد أربع سنواتِ، في ٨١٨- ٨١٩، استولوا على الإسكندرية مستغلين تمرد عامل الخليفة على مصر. وفي عام ٨٢٥، وبعد هزيمة المتمرّدين،اقترح عبد الله ابن طاهر، الذي أصبح والي مصر، على الأندلسيين الارتحال الى خارج حدود وادي النيل. وإذ ذاك امتطى هؤلاء ظهور السفن، وخاضوا عباب البحر قاصدين كريت، فغزوها، دون أن يلقوا مقاومة، وذلك لانشغال الأسطول والقوّات البيزنطية كافة بالصراع مع أنصار فوما السلافي. وأنشأوا معسكراً حربياً، أحاطوه بخندق. ومن كلمة "خندق" العربية، جاءت تسمية مدينة خالذيا (كانديا).

لقد أصبحت كريت وكراً للمسلمين، المغيرين على الجزر، وعلى سواحل بحر إيجة. ولم تُجدِ محاولات البيزنطيّين لإعادة سلطتهم إلى الجزيرة، أمداً طويلاً، (حتى عام ٩٦١).

وفي غرب البحر الأبيض المتوسط، كان العرب في شمال افريقيا قد أحرزوا، كذلك، نجاحات كبيرة. فقد تغلّب الأسطول العربي الوافر في قطعه، الجيّد في تجهيزه على الأسطول البيزنطي في القسم الغربي من البحر الابيض المتوسط، وساعد هذا إلى حدّ كبير في نجاح السيطرة العربية، على المنطقة.

أما دخول العرب صقلية فقد جاء في أعقاب انتفاضة يفريم البيزنطي، الذي أعلن نفسه إمبراطوراً. ولم تعترف كل مدن

ومقاطعات صقلية بسلطة الإمبراطور حديث العهد، وتوجّه حينذاك بطلب المساعدة إلى زيادة الله الأول، حاكم افريقيا، من سلالة الأغالبة. وقد نزلت القوات التي وجّهها زيادة الله الأول في صقلية، وباشرت بالاستيلاء على الجزيرة. وكان يفريم قد قُتل على أيدي أنصار الإمبراطور البيزنطي. واحتلّت قوات الأغالبية باليرمو ومسينا، وأكثر المدن الاخرى في الجزيرة، وأقامت فيها سلطة العرب الأفارقة الشماليين، ولم تبق سوى (سيراكوزه) تحت حكم الإدارة البيزنطية حتى سقوط سلالة العموريّين المالكة[16].

ومن صقلية، توغّل عرب شمال افريقيا إلى شبه جزيرة الآبسينين (ايطاليا)، واستولوا على تارنتو (التي تدعى الآن تارنتو)، التي كانت من أعمال دوقية لانفوباراد. واستولو، بعد ذلك، على نقاط عدة كانت عائدة للبيزنطيين مثل كالابريا، وآبوليبا، بما فيها الميناء الهام المحصّن (باري). وقد تكبّد اسطول البندقية الذي خفّ إلى خليج تارنتو آنذاك، الهزيمة في معركة بحرية مع الأسطول العربي. أما القوة التي كانت تحت إمرة الإمبراطور لودوفيك الثاني فقد دُحرت وَرُدّت على أعقابها، على أيدي العرب.

وقد أصبحت موانئ المدن الصقلية على البحر قواعد ملائمة لسفن الفاتحين العرب، الذين قاموا بغارات جريئة على سواحل إيطاليا وجنوبي فرنسا، وعلى الجزر الواقعة في القسم الغربي من البحر الأبيض المتوسط. وقد كسب العرب غنائم كبيرة في البرّ والبحر، بما في ذلك الناس، الذين باعوهم، فيما بعد، عبيدا في أسواق الرقيق، في مدن أفريقيا الشمالية. وفي عام ٨٤٠، تغلغلت سفن المحاربين العرب في مصبّ نهر "التيبر"، مكوّنة تهديداً جدياً لروما، التي استحوذ على سكانها، آنذاك، رعب لا نظير له.

الحركات الشعبية المحلية

لقد كوّنت الحركات المحلية، التي كانت مظهراً للتناقضات الاجتماعية والصراع الطبقي، المحتوى الأساس لتاريخ الخلافة العباسية. وكان جمهور هذه الحركات هم الفلاحين، والفئات المعدمة في المدن (الدهماء)، وأحياناً -العبيد الوافري العدد أيضاً. وكانت بعض تجمعات الطبقة الإقطاعية الحاكمة، الساخطة على حكم العباسيين، والمنخرطة ضدهم في صراع من أجل السلطة، كانت أحياناً، قد توحّدت (أو بالأحرى -تكيفت). مع هذه الحركات.

وكان اضطهاد الفقراء واستغلالهم هو السبب الأساس للحركات المحلية التي اتخذت شكل الثورات العاصفة ضد سيادة طبقة أصحاب الضياع، التي كان الخلفاء العباسيون يتزعّموها. لقد أصبح وضع الدهماء الصعب لا يطاق جرّاء الاضطهاد والجور وصنوف الابتزاز التي كانت تتعرّض لها على يَدَي الإدارة العباسية.

وفي بلاد الشام، التي أضاعت وضعها المتميّز السابق منذ عهود الخلفاء الأمويّين المتأخرين، بقي غير قليل من مشايعي وأنصار هذه السلالة المهزومة. وقد استطاعوا جعل عدد كبير من سكان بلاد الشام يعتقدون بأن إعادة السلطة الأموية، التي كانوا يصوّروها بصورة مثالية، ستخلّص البلاد من الظلم، والجور، والعسف، والنهب العباسي. ولذلك، حتى بداية القرن العاشر في بلاد الشام وقعت انتفاضات معادية للعباسيّين تطالب بإعادة النظام الأموي المنقرض. وقد علّق مشاركو تلك الانتفاضات، المحاربون تحت راية الأمويّين الماضية، آمالهم على "السفيانيّين" (أي أخلاف أبي سفيان) بصفتهم مخلصين لهم من الشرور ومن الكوارث. إن دعوة الإنقاذ السياسية الداعية لبني أميّة، قد تلقّت بين أبناء بلاد الشام انتشاراً كان من السعة بحيث أن الدعاية العباسية كانت مضطرة لأن تحسب حسابها. وقام حقاً الدعاة الموالون لبني العباس بتصوير هذا "السفياني" بصورة رجل مثير للشغب وللفتنة، مضلّل للمسلمين، رجل يقوم بدور مؤسّس مملكة الشر والفساد.

وبعد القضاء على بني أمية، على يد عبد الله بن علي عمّ الخليفة أبي العباس، رفع لواء التمرّد في حوران وقنسرين، في بلاد الشام، قائدان عسكريّان أمويّان، كان كل واحد منهما يعمل باسم "سفياني". وفي الوقت عينه، ثار سكان دمشق، ودحروا قوة الوالي

العباسي. وفي عام ٧٥٤، ثاروا ثانية، بعد أن علموا بوفاة أبي العباس، وبايعوا واحداً ممن تبقى من الأمراء الأمويّين الأحياء. وفي الوقت ذاته، انضم قسم من الشاميين إلى عبد الله بن علي، الذي ابتدأ الصراع من أجل عرش الخليفة مع ابن أخيه المنصور. غير أن هذه القوة تكبدّت الهزيمة في ما بين النهرين في القتال الذي جرى لها مع قوات أبي مسلم الخراساني.

إن موقف أبناء الشام من المنصور قد وجد انعكاسه الصحيح في مثل هذه النكتة: فذات يوم، أعلن هذا الخليفة، بارتياح، أن الطاعون كفّ عن التهام الناس، في عهده. وعلى هذا رد أحد الشاميين قائلاً: "إن الله رحيم جداً كي يوحّدك والطاعون ضدنا!"[١٧].

إن الاستغلال الضرائبي المكثّف للسكان، والمصحوب بالعسف وابتزاز وكلاء الإدارة المالية، قد أثار في العام ٧٥٩–٧٦٠ ثورةً في لبنان. وقد ضاعف الفلاحون الجبليون الثائرون، الذين هَبَطوا وادي البقاع، قواهم بانضمام سكان القرى المحلية إليهم، واندفعوا بعد ذلك إلى بعلبك. وحين ضيّقت الخناق عليهم قوّات الخلافة المتفوقة عدةً وعدداً، انسحبوا الى جبالهم غير أن فصائل التأديب التي تعقبتهم، منتهجة أساليب العقاب البالغ القاسية تجاههم، ابعدت كثيرين منهم من قراهم، وهجّرتهم إلى بطاح الشام.

وفي بداية عهد هارون الرشيد، كان وباء الطاعون الرهيب قد أفرغ في فلسطين قرىً كثيرة من سكانها. وقد توفي شطر من السكان، فيما فرّ شطر آخر يطارده رعب الموت. وقد تجلىّ وضع هؤلاء الفلاّحين بشكل صعب لدرجة بات معها حتى الخليفة يسارع بالأمر بتخفيف الضرائب عن كواهل اولئك الذين سيعودون إلى القرى المهجورة، ليباشروا فلاحة حقولها.

إن الوضع القلق والمضطرب في الشام قد تفاقم خطورةً بالنزاعات الدموية بين اليمانيين والقيسيين، الذين واصلوا، في العهد العباسي أيضاً، تسوية حساباتهم غير المنتهية.

وبعد وفاة هارون الرشيد، وفي ظروف الصراع الضاري من أجل العرش بين ابنيه الأمين والمأمون، وَقَع في مصر عصيان عسكري، أما في الشام فقد ظهر "السفيانيّون" مرة اخرى. وقد ساعد اليمانيون واحداً من السفيانيين، وهو الذي بويع على الخلافة في دمشق، فيما وقف خصومهم القيسيّون بجانب سفيانيّ آخر. وابتدأ في الشام اقتتال الاخوة الدموي، الذي قطع كل الاتصالات بين مصر والعراق، وأضرّ بالعمل الاقتصادي لأهل الشام. وقد كان الانهيار الاقتصادي سبباً للمجاعة الكبيرة، التي أرعبت البلاد.

وعندما تسنّم المأمون كرسي الخلافة، اكتسبت الحركات المحلية نطاقاً أوسع من ذي قبل. ويمكن عد كل الحقبة التي حكم فيها هذا الخليفة مرحلة عصيبة، كما حدّد ذلك الباحثان ن.آ. ميدنيكوف، وآ.آ. فاسيليف. وحتى عام ٢٠٤ هجرية (٨١٩/ ٨٢٠ ميلادية)، كان المأمون قد شغله كلياً قمع الانتفاضات والتمرّدات والثورات والصراع مع الذين ادّعوا الخلافة. ولم يستتب له الأمر، ليدخل بغداد إلا في عام ٢٠٤ هجرية. ولكن قبل الدخول إلى قصر الخلافة، كان عليه أن يوزّع مليونين واربعمانة ألف دينار ذهب، من أجل أن يضمن لنفسه استقبالاً مناسباً. وعلى أية حال، كان مضطراً بعد اعتلائه سدّة الخلافة في العاصمة الى أن يبعث القوات لمقاتلة المتمردين والثوّار في أمصار الخلافة المختلفة. وهكذا، ففي العام التالي ٢٠٥ هجرية، مثلاً، ابتدأت ثورة قبائل الزط في جنوبي العراق. إن هؤلاء أناس كالغجر، الذين، كما تقول الحكايات، هاجروا إلى هنا من موطنهم الهند في القرن الخامس، في عهد الشاهنشاه بهرام غور (٤٢٠– ٤٣٨ ميلادية). واستوطنوا، تدريجياً، مناطق الأهوار بين البصرة وواسط، واشتغلوا بتربية الماشية، والصيد، وأنواع الحرف. ومن المعروف أن بينهم موسيقيين مهرة.

لقد قامت هذه القبائل بمقاومة ناجحة للفصائل التأديبية التي بعثتها الخلافة، وقطعت الاتصال بين البصرة وبغداد، مُغيرةً باستمرار على قوافل الإبل وسفن البضائع والركاب. واستمرت

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

هذه الثورة (١٥) عاماً، من عام ٨٢٠ حتى ٨٣٥، ولم تنته إلا حين وعدت قوات الخلافة هؤلاء الثوّار بالعفو التام، أي بـالأمان على الحياة وما مَلَكَت الأيمان. وليست لدينا معلومات دقيقة عن أسباب الثورة، وعن شعاراتها.

وفي عام ٢١٠ هجرية (٨٢٥/ ٨٢٦ميلاديـة) وجّه المأمـون قوات، بقيادة عبد الله بن طاهر لتهدئة الشام ومصر. ولكن أعمال التأديب التي قام بها عبد الله، وبعده وارث عرش الخلافة، المعتصم، لم تعط غير نتيجة قصيرة الأمد جدا. وبأمل الوصول إلى نتيجة نهائية، جاء المأمون بنفسه، في عام ٢١٦ هجرية، إلى الشام، وتابع طريقه، بعد ذلك، إلى مصر.

وفي مصر لم ينقطع عصيان بعض العرب. وقـد التحمت بهم الطبقـات الاجتماعية الدنيا، التي كان المؤرخون يسـمونها "المشردون" و"الصعاليك". وأصبح الوضع بالغ التوتر، حين وقعت في عام ٢١٦ هجرية (٨٣١/ ٨٣٢) انتفاضة الأقباط، الذين قاموا (ابتداءً من الربـع الأخير للقـرن الثامن)، غير مرة، بـانتفاضات متواصلة بسبب أعباء الضرائب الثقيلة، التي كان يفرضها جشع الولاة، وعنف الجباة.

وقـد نكلّت قـوات المأمون بالأقبـاط الثائرين. وبموجب أمر الخليفة، فإن الثوّار، اللذين وقعوا أحياء في أيدي عساكره، كانوا قد أعدموا، أما آزواجهم وأطفالهم فقد بيعوا في أسواق النخّاسين وقد سُلّمت القرى القبطية المهجورة إلى الفلاحين المسلمين، وَحُوِّل كثير من الكنائس إلى مساجد.

وفي عهد الخليفتين اللذين خلفا المأمون، وقـعت ثورة فلاحـية واسعة في فلسطين في العامَين ٢٢٦- ٢٢٧ هجرية (٨٤٠- ٨٤٢ ميلادية)، ابتدأت في الوقت ذاته مع ثورة أهل الشام.

وكان حامي هذه الثورات الفلاّحـية وزعيمها الملهم هو أبـو حرب، الذي كان يخفي وجهه تحت قناع، ويدّعي "السفيانية". وقد وجد المساندة من قبل بعض زعماء اليمانيّين الكبار. وعلى مشارف الرملة حيث كان مقرّ قيادة أبي حرب، تجمّع الكثير من الفلاحـين (كما يقول التعبير العربي عادة مائة ألف نسمة). ولكن حين حـلّ موسم الأعمال الحقلية الربيعية، خف معظمهم إلى قراهم، ولم يبقَ تحت راية زعيم الانتفاضة أكثر من ألفي مقاتل. وقد قضت قـوات الخليفة، بسهولة، على مقاومتهم، وأسرت أبا حرب.

وقد أدّت الحركة المعادية للعباسيّين في افريقـيا الشـمالية، التي أسهم فيها العرب المحليّون والبربر، إلى إنشاء دولتين مستقلّتين تحت سلطة الأدارسة، والرستميين.

أما الفتن المحلية في ايران وآسيا الوسطى وما وراء القفقاس فكان لها طابع أكثر تعقيداً، بالمقـارنة مع الحركات في الشـام ومصر. إن وضع سكان القرى والمدن لم يتحسّن قط في أيّام العباسيّين الأوائل، وفي كثير من الحالات ازداد سوءاً وبعد الفتوحات العربية بوقـت قصير، صار إقطاعيّو بلاد فارس، وآسيا الوسطى، وما وراء القفقاس (وبالدرجة الأولى الأرستقراطية الإقـطاعية والمزارعون الكبـار)، صاروا يدخلون في دين الإسلام دين الفاتحين، كي يستطيعوا، في ظلّ السيادة العربية، أن يحتفظوا بملكيّتهم الخاصة للأرض، وبامتيازاتهم الطبقية.

أصبح الفلاّحون في زمن الخلافة تحت اضطهاد مزدَوج، فجعلوا يسعون للانعتاق منه بطريقة الثورات. وفي أيّام العباسيّين كانت هذه الثورات تنطلق ليس على السيادة العربية فحسب (لكونها دعمت الإقطاع المحلّي-المترجم)، وإنما أيضاً على الإقطاعيّين المحليّين الذين كانوا يدعمون هذه السيادة. وبهذا الشكل، استـهدفت حـركة السكان كلاً من التحرّر السياسي من السيادة الأجنبية، والتحـرّر الاجتماعي من كل أشكال الاضطهاد والاستغلال.

لقد هزمت الثورة المعادية للأمويّين في آسيا الوسطى وبلاد فارس أَمَل الثائرين بـالتخلّص من الاضطهاد السياسـي والاجتماعي. وبمجيء العباسيين إلى السـلطة لم يجر أي تحسّن في الوضع الصعب للسكان. ولذلك، شعَروا بالخيبـة المريرة، واجتاحـهم السـخط والاستياء، اللذان أعقبهما الاحتجاج.

وفي عام ٧٥٥ وقعت ثورة فلاحـية في نيسابـور والريّ، تحت

قيادة سومباط ماغ. وكان الداعي لهذه الثورة هو قتل أبي مسلم الخراساني بموجب أمر المنصور. لقد كان قائد الثورة على الأمويين، أبو مسلم، بالغ الشعبية بين الفلاحين، فباسمه وبعمله قرَنو آمالهم بالتحرّر الاجتماعي. وقد ألحقت قوات الخليفة، التي تعدّ عشرات الألوف، الهزيمة بفصائل ثوّار "سومباط"، وشتّتها، ودمرها على أجزاء، وعند التقهقر قُتل سومباط. وقد استمرت هذه الانتفاضة سبعين يوماً[١٨].

وعلى نحو لا يُقارَن كانت أشد خطورة وإصراراً ثورة "ذوي الأردية البيض" في ما وراء النهر، في الأعوام ٧٧٦- ٧٨٣. وكان قائد هؤلاء وزعيمهم الروحي هو المقنّع، الذي كان، في وقته، خصماً ليس للعباسيّين وحدهم، بل لأبي مسلم أيضاً. وجرّاء دعوته المعادية للعباسيين قبض عليه بأمر الخليفة المنصور، في (مَرو)، وزُجَّ به، بعدئذ، في السجن في بغداد. غير أنه استطاع الفرار، والعودة إلى مَرو، والتسلّل من هناك إلى ما وراء النهر. وقد ادعى أنه تجسيد لله في الأرض، ودعا إلى مقاتلة العرب المسلمين.

وقبل وصول المقنّع إلى ماوراء النهر، كانت حركة ذوي الأردية البيض "قد اكتسحت شطراً هاماً من سكان قاشقا- داري وزايرافشان(*)، وبعد ذلك منطقة بخارى، غير ان هذه المدينة امتنعت على الاستسلام للثوّار. ووفقاً لما يقوله ياكوبوفسكي، كاتب المقالة القيّمة المُسهبَة عن ثورة المقنّع، فان الثوار كانوا، من الفلاحين الذين عاشوا في مشاعيّات ريفية. وقد بدأوا يُضيعون الحرية الشخصية حتى قبل إقامة السلطة العربية. وفي عهد العرب، الذين فرَضوا عليهم الخراج، وطالبوهم بعمل السخرة، فإنهم فعلياً أضاعوا حريتهم، ولذلك، فقد انخرطوا، قرىً كاملة، في صفوف أنصار المقنّع[١٩].

وأمر المقنّع، وقد بَلغَ ما وراء النهر، بإقامة حصن قوي في جبال (سَنام)، وجعله مركزاً للانتفاضة. ولقمع هذه الانتفاضة أرسلت قوات كبيرة لاقت مقاومة ضارية من قبل الثوار. وقد وَصَل الخليفة المهدي بنفسه إلى نيسابور كي يقود المعارك. وغير المهدي بعض القواد بسبب خمولهم، أو تقاعسهم، وعيّن مكانهم آخرين، ولكن قمع الثورة لم يتيسر إلا بعد قتال سبع سنوات بفضل وفرة عدد وَحُسن تجهيز قوات الخليفة.

وقد دافع الثوّار بضراوة عن حصنهم. ووفقاً للأخبار، عند عشية سقوط آخر قلعة كان فيها المقنّع وصحابه، تناول السم، فأنهى حياته. غير أن "ذوي الأردية البيض" واصلوا بضع سنين أخرى القتال في حالات متفرقة، منتظرين قيامته الثانية.

إن معتقدات الحركات المحلية، الموجَّهة ضد السيادة العربية والنظام الإقطاعي في بلاد فارس وآسيا الوسطى وما وراء القفقاس كانت هي المزدكية أو التعاليم المنحدرة منها. والأمر المميّز لكل هذه التعاليم هو المفهوم المثنوي (المذهب المثنوي) في الصراع الأبدي بين النور والظلام، بين الخير والشرّ، والأمل الملحّ في النصر النهائي للنور على الظلام، للخير على الشر. وقد مُوثل النظام السائد للاضطهاد واستغلال السكان الفقراء بالظلمة -بالشرّ، أما النور- الخير فقد نشدُوه في الماضي السحيق. وبتصوير هذا الماضي، في صورة مثالية، في خيالهم، فقد عدوا النظام المشاعيّ الحرّ عصراً ذهبياً للمساواة الشاملة، والوفرة. ولذلك جَهَدوا لإعادة أنظمة المشاعية التي لم يُعانِ أجدادهم الأولون في ظلّها، لا من سلطة الإقطاع المستبدّة، ولا من ربا وعَسَف جامعي الضرائب والإتاوات. وقد عدوا الملكية الإقطاعية سبباً أساساً لكل الشرور والكوارث، وصاروا يسعون لاستبدالها بالملكية المشاعية.

لقد سُمي أنصار هذه العقيدة بالخرّميين إن معنى هذه التسمية ما يزال غير واضح تماماً، فمن الجائز أنه ينحدر من الكلمة الفارسية "خُرّم"- (بمعنى: واضح، نير). ومن الجائر أنها أتت هذه التسمية من "خور"، "خوار" (بمعنى: الشمس، النار). فقد كانوا مشهورين كذلك تحت اسم "مُحّامر" (بمعنى:الحُمر)، أو "سورخ عالم" - (بمعنى: أصحاب الراية الحمراء). لقد كان النور الأحمر -لون الدم- يعبّر لديهم عن الاستعداد للتضحية بالنفس باسم الحرية. وقد اكتسبت الأيدولوجية الخرّمية والأهداف الخرّمية تعبيرَها الأتم

والأوضحَ، في حركة بابك.

إن هذه الثورة، التي ابتدأت في اذربيجان قد انتشرت نتيجة النجاحات العسكرية للقوات الثائرة في رقعة الأرض الواسعة. واستولوا فضلاً عن اذربيجان على خراسان، وجبال، وأرمينيا، وطبرستان، وجرجان، والديلم، ومقاطعة همدان صعداً حتى اصفهان. لقد ابتدأت عام ٨١٥ أو ٨١٦، اكثر من ٢٠ عاماً، حتى ٨٣٧. وفي الأساس كانت حركة فلاحية شعبية، وفي اذربيجان وحدها اشترك فيها أكثر من ٣٠٠ ألف شخص. وكانت مُوجهة، بالدرجة الاولى، ضد السيادة العربية. إن هذا العامل، إلى جانب نجاحات المنتفضين الباهرة الطويلة الأمد في قتالهم قوات الخلافة قد دَفع كثيراً من ممثلي الطبقة المحلية السائدة للانخراط فيها، وبالمناسبة ليس من أبناء الطبقة الإقطاعية الصغيرة والوسطى وحدهم، وإنما من الأرستقراطية، ومن عمال الخليفة في الأمصار، وحكام المقاطعات أيضاً. وبالطبع، فإن ممثلي الطبقة السائدة (وخصوصاً الإقطاعية الكبيرة) قرروا الانخراط في هذه الحركة الفلاحية فكرفاق سفر مُكرَهين، وموقتين، وذلك لأن الحركة في أساسها معادية للإقطاع. وإذ أقاموا علاقاتهم مع بابك، أو وقفوا، في الأقل، موقف عدم المعارضة تجاهه، فإنهم إنما كانوا يؤمّلون الاحتفاظ بحياتهم وملكياتهم وربما -في المدى البعيد- بامتيازاتهم الطبقية أيضاً. ولكن هنا بالذات كان مكمَن الخطر الكبير على هذه الحركة، الأمر الذي ظهر عليها في مرحلتها الأخيرة.

ويمكن الحكم على نطاق الحركة، وعدد المشاركين فيها، وروحها القتالية الرفيعة، من خلال نجاحاتها المستمرة في المعارك ضد القوات التي أرسلها المأمون. وفي عام ٨٢٠ ألحق الخرّميون الهزيمة بأول قوة بعثها الخليفة لمقاتلتهم. ولمثل هذا المصير تعرّضت، كذلك، قوتان أخريان من القوات العباسية، كان المأمون قد بعث بهما لقتال الخرميين في عامي ٨٢٣/ ٨٢٤ وفي عام ٨٢٨ أيضاً. وكانت القوة الثانية منهما تضمّ في صفوفها ٣٠ ألف مقاتل. وفي ٨٢٩/ ٨٣٠ دمّر الخرميون قوة عباسية أخرى لم يَنجُ منها حتى قائدها.

إن أمثال هذه الانتصارات العسكرية الكبيرة للخرّميين يمكن تفسيرها بوفرة عددهم، وبالسعي إلى التحررّ من السيادة الأجنبية، التي عدوها السبب الأساس لاضطهادهم الاجتماعي . وما له أهمية كبيرة، في انتصارات الخرميين، كذلك، الصفات التنظيمية والموهبة العسكرية لبابك نفسه. لقد كان هذا، مَثَلُه مثل قوّاد الثورات الخرّمية الآخرين، من أبناء الشعب المعدمين، وقد عانى في صباه الحاجة والضنك. فقد عمل جَمّالاً في القوافل التجارية، وارتحل، بحسب طبيعة عمله هذا، في كثير من المدن والقرى، فقد استطاع ان يتفهّم جيداً وضع المعدمين العسير، كما استطاع ان يمثل آمالهم وطموحاتهم. وبوقوف بابك على رأس الحركة، التي اجتاحت رقعة شاسعة جداً، برز قائداً عسكرياً متميزاً جداً، قادراً على توجيه الانطلاقة الثائرة لدى الفقراء. وفي الوقت نفسه استطاع أن يقوّم، على نحو صحيح، الوضع العالمي، وبالدرجة الأولى: العلاقات العربية -البيزنطية.

فقد انخرط في مراسلة مع الإمبراطور البيزنطي فيوفيل، وكان مستعداً لأن يشنّ معه عمليات حربية مشتركة على الخليفة، ففي عشيّة زحف المأمون الى الإمارات البيزنطية في ٨٣٠، أسرع إلى هناك ١٤ ألف خرّمي. وقد أسكنتهم القيادة العسكرية البيزطية ووزّعتهم في مساكن معينة، وشكّلت منهم فصائل خاصة، صارت تُعرَف باسم "تورمي الفارسية". وحرص البيزنطيّون، كذلك، على توفير الزواج لمقاتلي هذه الفرق الفارسية، الذين أعربوا عن رغبتهم في الزواج.

ومن المحتمل أن هذه الحملات التي اضطلع بها الخليفة المأمون ضد بيزنطة، في السنين الأربع الأخيرة من حياته، كانت تهدف، فيما تهدف، إلى مقاومة توحيد قوى بابك الثائرة مع القوات البيزنطية.

وفي الأعوام الاولى لحكم المعتصم (٨٣٣- ٨٤٢) كانت الحرب على ثوّار بابك الخرّمي قد باتت هدفاً أساساً لعمل حكومة الخليفة. وعلى وفق بعض المعطيات، أوصى المأمون خليفته بأن يعهد بقيادة هذه الحرب لقائد حازم، قاسٍ، وبأن يجعل تحت تصرّفه كل

القوات والوسائل الممكنة.

وفي عام ٨٣٣، بعثت لقتال الخرّميين قوة عباسية قيض لها في القتال، على مشارف همدان، أن تُلحق الهزيمة بالثائرين الذين لم يقهرهم أحد، قبل هذا الوقت. وفي تلك المعركة وبعدها قُتل ٦٠ ألف خرّمي. وقد لاذ الذين نجوا من الإبادة بالفرار إلى أرض بيزنطة[٢٠].

وحتى عام ٨٣٧، لم تَقَع على الحدود العربية -البيزنطية أي عمليات قتالية. وقد فُسِّر هذا بأن قوات بيزنطة الضاربة كانت مشغولة في صقلية وقد سمحت هدنة الأربعة أعوام الفعلية في آسيا الصغرى لقيادة الخليفة العسكرية بتوجيه كل القوات العسكرية الموجودة. بما في ذلك القوات المسحوبة من المناطق المتاخمة للحدود لقتال قوات بابك. وكانت قوات الخليفة حسنة التجهيز بالسلاح، والمواد الغذائية، والمؤن، ولوازم الحرب، كما وضعت تحت تصرّفها عُدَّة الحصار والهجوم والانقضاض، وهي التي أُعدت خصيصاً للحرب الجبلية.

وفي عام ٨٣٥، عيّن الخليفة المعتصم قائداً عاماً للقوات الموجهة لقتال الخرّميين، وهو التركي أفشين، الذي أبدى مهارة وقدرة كبيرتين في عمليات القمع والتأديب، منذ أيام المأمون، حين عُهِد إليه قمع الانتفاضة في مصر. وقد أمر الخليفة بأن يُدفَع لهذا القائد العسكري مرتب مرتفع: بمعدل عشرة آلاف درهم في الأيام التي تجري فيها معارك مع الخرميين، وخمسة آلاف درهم في الأيام التي لا تجري فيها أمثال هذه المعارك[٢١]. وكان تحت إمرة الافشين قواد عسكريون مشهورون آنذاك، أمثال جعفر الخياط وإيطاخ الطبّاخ. وحين جعلت قوات الخليفة تضيّق الخناق على قوات بابك، فإن الأخير أخبر الامبراطور فيوفيل، بأن الخليفة وجّه ضد الخرميين كل قواته، بمَن في ذلك خيّاطه وطبّاخه. وقد التجأ بابك إلى التلاعب بالألفاظ. فباللغة العربية تعني كلمة "خيّاط". الخياط الذي يخيط الملابس، و"طبّاخ"- الطاهي الذي يطهو الغذاء. وفي الوقت نفسه، ووفقاً لبعض المعطيات قد ادعى بابك، في مراسلته مع الامبراطور فيوفيل انه مسيحي، كما وَعَد بأن يُدخِل في دين المسيحية كل مريديه وأنصاره[٢٢]. ولا ينبغي النظر إلى تصريح بابك هذا بأنه مناورة دبلوماسية فحسب، ذلك أن الخرميين، من حيث معتقدهم، وقفوا أقرب إلى المسيحين، منهم إلى الإسلام.

ورغبة في إضعاف قوات الخلافة، رجا بابك فيوفيل بإصرار، أن يدخل في حرب مع الخلافة. وقد افترض، بحصافة، أنه في حالة التهديد العسكري من جانب بيزنطة، فإن الخليفة سيكون مضطراً لأن يسحب قَدَراً كبيراً من قواته المسلحة من جبهة الخرميّين، لكي يدرأ أو يوقف هجوم البيزنطيّين. ولذلك قامت القيادة العسكرية البيزنطية، مستغلة قلة عدد القوات المسلحة العربية في مناطق الحدود، بشن غارة على أرض الخلافة. وفي عام ٨٣٧، قامت القوات البيزنطية بزحف على مشارف زيبار، الحصن المعروف في ما بين النهرين. وفي صفوف القوات البيزنطية قاتل أولئك الخرّميون، الذين مضَوا، وقتها، إلى أرض بيزنطة. وقد استولى البيزنطيوّن على زيبار، وأحرقوها، وقتلوا سكانها من الرجال، وسَبَوا النساء والأطفال. واستولوا كذلك على مدن مالاطيه وساموس. وقد اقترن احتلال هذه المدن بفظائع وحشية كانت اعتيادية جداً لدى البيزنطيين: فقد فقئت عيون كثير من الأسرى، وجُدعت أنوف وآذان آخرين.

لقد كان اقتحام القوات البيزنطية للأرض العربية غارة كبيرة ما إنْ أتمّوها حتى عادوا إلى أرضهم. ولم تضعف قوات الخلافة، وواصلت تشديد الخناق على الخرّميين في مناطق اذربيجان الجبلية. غير أن الخرميّين كانوا يمثلون قوة رهيبة، كما أن قائدهم بابك كان لا يزال يلعب دوراً سياساً بارزاً. ومعلوم في الأقل، أن القائد العام لقوات الخليفة العباسي، الأفشين، قد دخل في مفاوضات سرية مع بابك، ومع (مازيار) حاكم طبرستان الذي كان يراسل القائد الخرّمي ويؤيّد عملياته. وقد جرَت المفاوضات لغرض صياغة خطة العمليات المشتركة ضد الخليفة، الذي اقترح الأفشين خلعه، وإقامة سلطته هو في دار الخلافة، ومنح شركائه السيادة على بعض أقسام أرضه. غير أن الاتفاق لم يتمّ، على الأرجح، بسبب رفض بابك

الانخراط في تحالف مع ممثل تلك الطبقة، التي قاتلت الخلافة العباسية زَمَناً ليس بالقصير(*).

ولم يقتصر الأفشين في حربه على الخرميين، على القوة البشرية، وَعُدَّة الحصار والهجوم والانقضاض بل أعار، كذلك، عمل وكلائه في مؤخرة العدو اهتماماً كبيراً. وكان وكلاؤه هؤلاء (الجواسيس والعملاء) لا يُعلمون قيادة الخليفة بمعلومات الجاسوسية فحسب، بل تمارس تأثيرها في إضعاف معنويات تلك العناصر الإقطاعية التي كانت حلفاء وقتيين للخرّمين. إن النجاحات العسكرية لقوات الخلافة في ٨٣٥- ٨٣٧ قد أرعبت رفاق السفر هؤلاء، الذين كانوا يخشون فقدان أراضيهم وامتيازاتهم، ناهيك عن الوقوع بأيدي جلاّدي قوات التأديب. وهكذا، باتوا يرفضون التحالف مع بابك، بل جعلوا يعملون ضده، ضاربين إيّاه من الخلف.

وفي نهاية عام ٨٣٧، حاصرت قوات الأفشين حصن باز،الذي كان مقرّ قيادة وإقامة بابك. وحين أصبح واضحاً أن سقوط الحصن حتمي، غادره بابك في نفَق تحت الأرض. لقد عزم على الالتجاء الى بيزنطة، لكي يستطيع بمساعدة قوات الإمبراطور فيوفيل مواصلة قتال الخلافة. ولكن صاحب ضيعة محلياً في أرمينيا اختطف بابك، غدراً، وقدّمه إلى الأفشين. وأمر الأفشين بأن يُبعَث بابك على فيل إلى مقرّ إقامة الخليفة في سامراء، إلى حيث وَصَل هو، أيضاً، في احتفالات ضخمة. قطعت أوصال بابك أربعة أقسام، وصلب، بصفته متمرداً على الخلافة.

إن الحقد الطبقي على السكان المقاتلين من أجل تحررهم كان هو سبب الافتراءات على بابك ورفاقه في السلاح، وهي التي بقيت في تآليف المؤرخين المسلمين. إن التلفيقات في المجانبة للأخلاق لدى الخرّميين قد تقبّلها، كذلك، المؤرخون الأغنياء، المختصون بتاريخ العرب والإسلام. وهكذا، مثلاً، فإن ك. يوار في كتابه "تاريخ العرب" -وهو مؤلّف بسيط من مؤلفات علم التاريخ الأجنبي- يقدم القول الآتي: "وَقَعت اذربيجان تحت سيطرة بابك، رئيس نِحلَة شيوعية للخرميين، الذين كانوا يؤمنون بتجسيد الألوهية في شخص رئيسهم، ويبشرون بمشاعية الملكية والمرأة"[٢٣].

حتى العالم الهندي المسلم في القرن العشرين سيد أمير علي يُظهر تجاه بابك الكراهية والاحتقار: "في عهد المأمون، -يكتب هو- سيطر قاطع طريق باسم بابك على حصن، في أحد الوديان التي لا يستطاع بلوغها، في مازندران. وكان هذا ينتسب إلى نحلة الخرّميين- الماغيين، الذين كانوا يؤمنون بحلولـيّة الأرواح، ولم يعترفوا بأية قاعدة من قواعد الاخلاق، التي نصّت عليها اليهودية والمسيحية والإسلام. وبانطلاقه من قلعته الجبليّة، عرّض الأصقاع المجاورة إلى نهب لا رحمة فيه، وقَتَل الرجال، واستاق النساء (سواء منهن المسيحيات والمسلمات) في سبي مُشين"[٢٤].

وكما لوحظ سابقاً في توصيفة الحركة المزدكية، فإن خصومها جعلوا المشاركين في هذه الحركة موضوعاً للافتراءات الحاقدة. وقد ظلّت هذه الافتراءات في التداول على مدى القرون، وانسحبت كذلك على الخرّميين. لقد كان هؤلاء المقاتلون ضد استغلال الإقطاعيين اصحاب الأرضين حقاً أنصار مشاعية الملكيات في مشاعية زراعية حرة، سَعَوا هم لإقامتها. ولكنهم، قطعاً، لم يكونوا ولم يستطيعوا أن يكونوا شيوعيّين بالمعنى العلمي لهذه الكلمة. إن العلماء الغربيين، وقد عرّفوهم بمثل هذا التعريف، لم يدرجوا فيه المحتوى العلمي، وكل ما استطاعوه هو إرعاب البرجوازيّين الصغار الأنانيّين. أما ما يخصّ الاسطورة القبيحة عن مشاعية النساء" فإنها إنما استطاعت الظهور انعكاساً للوضع المتحرّر للخرميين، في المرآة المنحرفة لوجهة النظر الإسلامية. إنما ينحصر الأمر كله في أن الفلاّحات (والجبليّات منهنّ على وجه الخصوص) المشغولات، طوال الوقت، بالعمل الإنتاجي، كن يتمتّعن في البلدان الإسلامية بذلك الاستقلال النسبي، الذي حُرمته تماماً نساء المدينة العاطلات، وقبل كل شيء نساء وبنات أصحاب الأرض، والتجّار، ورجال الدين. ومعلوم أن النساء الخرّميات لم يكن يلبسن حجاباً، أو ملابس لتعوق الحركة كالخمار أو البرقع ولم يكن لديهنّ أدنى تصوّر عن التنسّك والاعتزال، وذلك لأن كل هذا يعوق أعمالهنّ الحقلية

والبيتية. كنّ يجلسن إلى مائدة واحدة (أو بالأحرى على بساط واحد) مع الرجال، وكان لهن الحق في أن يخترن الخطيب والزوج (اي انهن كنّ يتزوّجن بدافع الحب)، وفي حالات الاقتضاء واللزوم كنّ يشاركن في المعارك، وكان بعضهن يشارك في الاجتماعات العسكرية. إن مثل هذا الوضع للنساء، الذي وفّرته لهنّ مشاركتهن في العمل والقتال، تصوَّره المفكرون الأقطاعيون، أنصار استرقاق المسلمة مظهراً للأخلاقية بل حتى للدعارة. وفي مثل هذا الجوّ من عدم التسامح، والتعصّب، واضطهاد جنس النساء، نشأ التصوّر الأخرق عن "مشاعية النساء" لدى الخرّميين.

ثورة الزنج:

إن إحدى الخصائص الخاصّة المميّزة للمجتمع الإقطاعي في الخلافة العباسية كانت هي وجود النظام العبودي. وبغضّ النظر عن تطوّر أسلوب الانتاج الإقطاعي والعلائق المتسقة معه، فإن هذا النظام لم يتمّ التغلّب عليه أمداً طويلاً. إن حقيقة استخدام العبيد في الانتاج في عهد الخلافة لم تلقَ بعد التفسير المرضي في أعمال مؤرخي الشرق السوفييت. وعلى المستوى المعاصر لدراسة مسألة أسباب استغلال العبيد في الزراعة، والريّ الصناعي، والحرف، يمكن التصريح بالآراء الآتية وحدها:

أولاً:- كان النظام العبودي يميّز المجتمعات الإقطاعية الباكرة في بيزنطة والشرق الأوسط. وبعد الفتوحات العربية، فإن هذا النظام لم يستمرّ فحسب بل تطورّ لحد كبير أيضاً، ذلك لأن الأرستقراطية القبلية العربية السائدة انطلقت تعمل حاملة "للعلاقات العبودية. وفي ظروف الزيادة الهائلة في عدد العبيد في عهود الخلفاء "الراشدين"، وآل سفيان، فإن تطوّر العلاقات الإقطاعية في الأقطار التي دخلها العرب قد توقّف موقتاً(*).

ثانياً- إن التفكّك البطيء للمشاعية الزراعية، التي قاومَت استعبادها، على نحو فعال، إضافة إلى ضرائب الريع، وعدم وجود السخرة هناك، إن كل هذا معاً قد استدعى ضرورة استخدام العبيد في حقول الإنتاج الأجماعي التي تتطلّب أقصى ما ينبغي من العمل المُجهد، وبالدرجة الاولى في الريّ الصناعي، وكذلك في التعدين، وفي بعض أشدّ الحرف صعوبة.

إن الحاجة للعبيد في الانتاج الاجتماعي، والتطوّر الواسع للعبودية البيتيّة (استخدام العبيد في البيوت -المترجم) قد تطلّب تجارة عبيد ناشطة جداً. فكانت قوافل الرقيق، والسفن التجارية المكتظة بالعبيد تصل الى بغداد عاصمة الخلافة سواء من الشمال أو من الجنوب. وعلى نحو خاص، فإن شطراً كبيراً من العبيد كان يرد من زنجبار (بلاد الزنج -بالعربية) لقد الحقت هذه التسمية، في الجغرافية العربية والإسلامية ليس بجزيرة (زنجبار) وحدها، بل بكلّ سواحل افريقيا الشرقية أيضاً. وقد اشتهرت هذه الجزيرة بين تجار العبيد، آنذاك، بأسواقها الحاشدة بالعبيد ذوي البشرة السوداء. ومن موانئها كانت تنطلق سفن كثيرة، محملة بالعبيد، الذين كانوا يُنقلون إلى منطقة شطّ العرب. وفي عهد الخلافة هذا، عُرف العبيد المنقولون من افريقيا، باسم "زنج"، باسم الجزيرة.

وفي ضواحي البصرة كان يُلاحَظ دائماً تحشّد كثيف للزنج، الذين كان تجّار العبيد والفرس يأتون بهم، ويعرضونهم للبيع. وفي القرن التاسع كان العبيد يُختارون للخدمة في قوات الخلافة، وكانت اكثريتهم تُوجّه إلى جنوبي العراق، وإلى كورة الأحوار. وفي هذه المناطق كانوا يتعرضون لاستغلال قاس جداً في اراضي الدولة، وأراضي الملاكين الخاصة. كانوا يشقّون الأقنية، ويجفّفون المستنقعات، المليئة بالقصب، وينظفون الممالح، نازعين عنها الطبقة العلوية للملح، ويستخرجون نترات البوتاسيوم من مياه البحر بالتبخير. والى جانب كل هذا، يستخدمون في العمل في مزارع القطن، وقصب السكر.

كان الزنج، وقدأسكنوا في معسكرات تضمّ (من ٥٠٠ إلى ٥ آلاف، في كل معسكر)، مضطرين للعمل في ظروف غاية في الصعوبة. كانوا يعيشون في الأوحال، وفي ظلمات الأخصاص البائسة الهزيلة، المُقامة بشكل بدائي والمؤلّفة، اساساً، من القصب

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

وسعف النخيل. وكان طعام العبد الواحد في اليوم الكامل يتألف من بضع حفنات من الطحين والتمر. ويعملون ويموتون من حمّى المستنقعات، ومن الإنهاك، والمعاملة الوحشية التي كانوا يلقونها على أيدي النظّار. وأحياناً، كان العبيد يثيرون الانتفاضات التي كانت تقمعها سلطات الخلافة دون رحمة، وقد وقعت الانتفاضة الاولى في عام ٩٦٤.

لقد استمرت أكبر ثورة للزنج أربعة عشر عاماً، ابتداءً من عام ٨٦٩. ويمكن أن نستقي أكثر أخبارها تفصيلاً من تاريخ الطبري العام، الذي كان معاصراً لهذه الثورة. ولم تصل إلينا التآليف التي كتبها أحد قادة الزنوج أو مفكّريهم على ان بعض المعلومات عن هذه الثورة تتوافر، كذلك في مؤلفات المسعودي.

اندلعت ثورة الزنج هذه في ضواحي البصرة. ففي عام ٢٥٥ هجرية (٨٦٨/ ٨٦٩ ميلادية) ظهر هنا، كما يكتب الطبري، شخص اجتمعت اليه الزنوج الذين كانوا ينظفون الممالح"[٢٥] كان هذا هو عليّ بن محمد، الذي أصبح قائداً ومفكراً لثورة العبيد السود. وقد بقيت معلومات متضاربة، غير محدّدة عن نسبه وتحدّره، وعن المرحلة الاولى من حياته وأعماله. ويبدو، أنه بدأ العمل في مهنته في (هَجَر)، في شرق شبه جزيرة العرب، حيث أعلن نفسه نبياً، وسليلاً مباشراً للامام علي [ع]. وليست ثمة معطيات دقيقة عن محتوى وعظه ودعوته. وقد التفّ الكثيرون حوله، ولكن الآخرين في المدينة نفسها اعترضوا على إقامة سلطته. وجَرت صدامات دموية بين أنصاره وخصومه. وإذ ذاك هرب إلى البحرين، حيث اعترف سكانها به نبياً. وعلى أي حال، فحينما حاول أن يجبي الخراج منهم طروده. وآنذاك جعل هو ورهط من أنصاره يجول في الأحساء متنقلاً من مضرب بدوي إلى آخر، مبشراً، بآيات جديدة للقرآن، غير معروفة حتى ذلك الوقت. وقد التفّ حوله كثير من الأنصار الجدد، الذين مضوا تحت قيادته لمهاجمة أهل البحرين. ولكن هؤلاء ألحقوا الهزيمة "بقوته" فتفرقت بددا. وكما أفاد أنصاره، فيما بعد، أنه سمع، وهو في غمرات اليأس، من سحابة راعدة صوتاً خفياً يأمره بالمضيّ إلى البصرة"[٢٦].

وفي عام ٨٦٨ ظَهَر في البصرة، حيث جرى اقتتال أخوي بين مجموعتين من السكان. وباءت بالفَشَل محاولة علي بن محمد في تزعّم إحدى المجموعتين، التي استكانت له. وكان حاكم المدينة قد زجّ في السجن أولئك الناس القلّة الذين التفّوا حول علي بن محمد. وفي السجن كانت زوجته، وابنه، وابنته، وجاريته، لكنه هو نفسه لاذ بالفرار إلى بغداد. وهنا انضمّ إليه شطر من سكان العاصمة. وعلى أية حال، ما إنْ مكث عاماً في بغداد، حتى نقل نشاطه، من جديد، إلى البصرة. وكان والي البصرة قد أُبدل، أما "زعماء الفتنة" فقد حرروا السجناء من السجون. ولحظَةَ عَرفَ عليّ بن محمد بذلك، عاد إلى البصرة في رمضان عام ٢٥٥ هجرية (في آب ٨٦٩)[٢٧].

وفي هذا العام يورد الطبري[٢٨] حكاية عبد من العبيد (غلام) عن حديثه مع الزعيم المقبل للزنج وهي أن الاخير، وقد التقى هذا العبد على مشارف البصرة، استعلم منه عن مقدار ما يحصل عليه العبد من الطحين، والخبز، والحساء، والتمر. واقترح عليه، بعد ذلك، أن يأتي بالعبيد إليه. وحين أتاه مائة وخمسون عبداً من أحد الامكنة، وخمسمائة من بلدة آخرى، وكثير من العبيد من أماكن شتى، ألقى فيهم خطبة. وفي خطبته الاولى أمام الزنج، وعدهم "بالسلطة والملكية" وأقسم بأنه لن يخدعهم ولن يهجرهم. ثم أمر بأن يؤتى إليه بمالكي هؤلاء العبيد ونظّارهم، وهدّدهم بالموت بسبب اضطهادهم للعبيد. وقد نفّذ هذا التهديد، جزئياً، حين أمر العبيد بأن يضربوا بجريد النخل الطريّة المالكين والنظار، وأجبرهم على أن يطلّقوا زوجاتهم كيلا يثرثرن فيفشين مكان إقامته وعدد أنصاره. وأبقى على الأرجح تلك الزوجات المطلّقات لديه، ووجد لهن أزواجاً جددا من بين رفاقه.

وفي العام الأول من الثورة في ضواحي البصرة، تجمّع حول علي بن محمد زهاء ١٥ ألف عبد. وأعلن في خطبته التي ألقاها فيهم أنه يبغي إصلاح حالهم، وجعلهم هم أنفسهم مالكي عبيد، وثروات، وبيوت"[٢٩].

لقد كانت أفكار علي بن محمد سنكريتية* لقد كان شيعياً، وقام بدور، الإمام المنتظر "السليل المباشر لعليّ بن أبي طالب [ع]، بل إنه ادعى كونه تجسيداً لله، ولذلك كان يخفي وجهه تحت قناع. ولكنه في مجرى الثورة تجلى، بـأوضح ما يكون التجلي، نصيراً لتعاليم الخوارج في تعبيرها المتطرّف، الذي استقاه من الأزارقة. وفي عداد هؤلاء يجعله المسعودي، أيضاً، وهو في إثبات عانديته إلى هذه الطائفة المتعصبة، يُورد قتل النساء والغلمان والشيوخ، الذي كان يتمّ بأمره، وكذلك الشعارات والصيغ الدينية الخارجية (نسبة إلى الخوارج /المترجم)، التي كان يستعملها في خطبه العامة(٣٠).

وبالطبع، فان الزنج لم يكن لهم رغبة ولا إمكانية لتقبّل عقائد الخوارج. ومن حيث التطوّر الذهني والمستوى الثقافي، كان الزنج أوطأ بكثير من الفلاحين العراقيين الأميين، الجاهلين. فهم لم يفهموا الحديث العربي لقائدهم، الذي كان مضطراً لمخاطبتهم بواسطة مترجمين. غير أنه مع ذلك العدد الوافر في اللغات واللهجات، التي كان يتكلمّ بها العبيد الأفارقة، المجلوبون من الأقطار المختلفة "للقارة السوداء"، فإن إيجاد عدد كاف من المترجمين العارفين باللغات المختلفة كان أمراً مستحيلاً تماماً. وأخيراً يبدو زعيمهم وإمامهم المفوّه كما لو أنه أبكم، أما هم فكانوا يبدون صما أمام تعاليمه ودعوته.

إن الزنوج الذين ذاقوا قسوة ومرارة العبودية وخزيها، كانوا يتأججون بالكره للناس، كما كانوا يجاهدون لملء بطونهم، التي أنهكتها المجاعة الطويلة. ومن هنا جاء القتل والنهب الذي أرعب به العبيد الثائرون مالكيهم وأرهبوهم.

إن الاستيلاء على البصرة، المحاطة بالأسوار العالية القوية هو أمر لم يستطعه الزنج ولعلهم لم يستهدفوه ايضاً، لأنهم لم يكونوا منظّمين بعدُ بالمعنى العسكري، ولم يكن لديهم حتى سلاح يدوي، ناهيك عن أسلحة الحصار والهجوم والانقضاض. ولكن في ضواحي هذه المدينة وفي مقاطعتها كان العبيد قد قتلوا مالكيهم ونظارهم، وغنموا الغنائم الثمينة، بما في ذلك السلاح.

وقد وَقَف الفلاحون المحليون وفقراء المدن موقفاً تعاطفياً تجاه ثورة العبيد. وكان علي بن محمد قد منع الثوّار من القيام بالسلب والنهب في القرى، أثناء بحثهم عن السلاح والمواد الغذائية. وفي البداية كان وضع العبيد الثائرين بالغ الصعوبة. غير أن قائدهم أظهر طاقة خارقة، وتبصراً في الأمور. فقد قسّمهم على فصائل، وعيّن رؤساء عليهم، ومنعهم من شرب الخمور.

وفي عام ٢٥٦ هجرية (٨٦٩/ ٨٧٠ ميلادية) استولى الزنج على (الأبلّه) ونهبوها. وبعد ذلك استسلمت لهم عبادان. وفي ذلك العام ذاته انتشرت الثورة في كورة الاحواز، وقد لقيت التعاطف والدعم من جانب الفلاحين ومعدمي المدينة على حد سواء. وفي الأحواز، المدينة الرئيسة في هذه الولاية، جرَت، فيما يبدو، ثورة تملّك الزنج بفضلها، بسهولة، هذا المركز الكبير وأسَروا حاكمه. وقد ألحقوا الهزيمة بفصيل الخليفة، الذي خفّ لقمع الثورة، وفرّت بقايا هذا الفصيل، مع قائدها، تحت حماية أسوار البصرة المحصّنة.

لقد أثارت نجاحات الزنج الفَزَع بين سكان البصرة. ففرّ الكثيرون منهم، على عجل، وهجروا المدينة، منطلقين إلى الشمال. أما الزنج فقد هزموا، من جديد، فصيلاً عسكرياً آخر أرسل من بغداد(٣١).

وفي عام ٢٥٧ هجرية (٨٧٠- ٨٧١ ميلادية)، أحرز الزنج المزيد من الانتصارات على جيش بغداد. وكان سبب الانتصارات العسكرية، التي أحرزها فصائل العبيد الثائرين، باطراد، لا يكمن في قسوتهم الضارية فحسب، بل في فن الهجمات الليلية على معسكر القوات الحكومية أيضاً. وكان الأهمّ من ذلك بكثير، ذلك الظرف غير المتوقّع لقيادة القوات الحكومية: فإن الكثير من جنود هذه القوات، المجنّدة من الزنج، قد انتقلوا، دون مقاومة، إلى جانب إخوتهم الثوّار، واعين وحدتهم الاجتماعية والسلالية معهم. إن مثل هذه الإمدادات المتدفقة إلى فصائل العبيد الثوار قد رفعت، إلى حد كبير، استعدادهم القتالي، ذلك لأن القوات الزنجية التي كانت في الجيش الحكومي، كانت مدرّبة على الشؤون العسكرية، ومسلّحة

جيداً. ولذلك، فبعد عامَين من بداية الثورة، كانت فصائل الثوار الزنوج قد تحوّلت إلى جيش حقيقي.

وفي خريف عام ٨٧١، استولى الزنج على البصرة. وقد هلك عدد كبير من السكان (٣٠٠ ألف شخص، وفقاً لما يقوله المسعودي)[٣٢]، ودمرت الحرائق شطراً كبيراً من المدينة، ونُهبت ممتلكات السكان. بيد أن الزنج لم يجعلوا هذه المدينة الكبيرة مركزهم السياسي -العسكري الأساس، وذلك لأن هذا لم يكن منسجماً مع ستراتيجيتهم العسكرية. وفي مجرى العمليات الحربية ضد قوات الدولة، أقاموا لأنفسهم ملاجئ حصينة في الجزر الصغيرة، المتكونة بفعل مجاري شط العرب، والأقنية، في أماكن مغطّاة بأدغال القصب الكثيفة. وفي هذه الملاجئ، المحاطة بالحواجز الأرضية، التي كانت تقع وراءها مساكنهم ومستودعاتهم، هنا كانت بعض فصائل الزنج تختفي، بعض الوقت، محتمية بالمستنقعات أو الشبكة المعقدة للأنهر الفرعية، من قوات الدولة المرسلة لقتالهم، كلّما عدوا مقاتَلها أمراً غير ممكن. والى هنا كانوا يأتون بالغنائم من معسكرات القوات الحكومية، والمناطق الآهلة بالسكان، وكذلك عند الغارات على قوافل التجّار، والسفن. ومن مثل هذا الملجأ، المعتبر مقر إقامة علي بن محمد نشأت مدينة حصينة كبيرة هي (المختارة)، التي كانت تقع إلى الجنوب الغربي من الكوفة، وأصبحت أخيراً عاصمة دولة الزنج.

وعلى وجه العموم، تطورت الحرب بين الزنج والحكومة العباسية، حتى سبعينيات القرن التاسع، لصالح القوى الثائرة تحت زعامة علي ابن محمد. وقد أظهرت قوات الحكومة قَدراً من الصمود أقلّ مما أظهرته قوات الزنج التي استمرّت في إحراز الانتصارات التي فاقت الهزائم التي تعانيها، لحدّ كبير. وفي عام ٨٧٥، ظهر لدى الزنج حليف عَفَوي، في شخص القائد العسكري الفارسي يعقوب بن ليث الصفّار، الذي كان يعمل ضد دولة الخلافة العباسية. وعلى أية حال، فإن زحفه على بغداد انتهى بالهزيمة. وقد انطلق العامل الذي عيّنه يعقوب الصفار على الأحواز مع الزنج، في عمل مشترك، ولكن قواهم الموحَّده دُحرت في عام ٨٧٦ على مشارف سوس. وسرعان ما تحوّلت التراعات التي أعقبت هذا الفَشَل، إلى علاقات عدائية بين يعقوب والزنج. وتعيّن على علي بن محمد أن يتنازل ليعقوب عن الأحواز، كيما يتفادى التهديد العسكري من جانبه.

وفي عام ٢٦٥ هجرية (٨٧٨- ٨٧٩ ميلادية) استولى الزنج على واسط، وبتقدمهم إلى الشمال منها تكشّفوا في الطريق إلى بغداد. ولكن في العام التالي كانت قوات الخليفة تحت قيادة أبي العباس (الخليفة المقبل: المعتضد)، ابن الموفق، قد ألحقت الهزيمة بالزنج، ودخلت واسط. وفي ذلك العام ذاته، كان الموفق نفسه قد تقلّد قيادة القوات الموجَّهة الى الزنج. وقد أرفقت هذه القوات بأسطول نهري وافر العدد، متألف من سفن ذات سطوح، وقوارب وزوارق كان التوغّل على ظهورها ممكناً في داخل المجاري، والأقنية المؤدية إلى ملاجئ الزنج.

وفي هذا الوقت، جَرَت في أوساط الثوّار الزنوج تحولات جوهرية جداً، أصبحت سبب هزيمتهم؛ فالعبيد الزنوج لم يقضوا، وقد تحرروا من الاضطهاد والاستغلال، على النظام العبودي.وكما رأينا، فمنذ بداية الثورة ذاتها، وَعَد علي بن محمد العبيد المنتفضين بأنه سيجعلهم مالكي عبيد مُثرين! ولذلك فبتوسّع رقعة أرض الثورة، تعاظم عدد العبيد عن طريق تحويل الأسرى وبعض السكان الأحرار إلى عبيد. وكما يفيد المسعودي، فإن الزنج كانوا يبيعون في المزاد العلني النساء العربيّات ذوات النَّسب العريق -كالقرشيّات والعلويّات وسواهن. وعلى ما يبدو، كان العَرض يزيد على الطَّلب في أمثال هذا المزاد العَلَني، وذلك لأنه هنا كان يمكن شراء الفتاة الصبيّة بثمن بخس (٢-٣ دراهم). وكان كل زنجي يمتلك، كما يؤكد المسعودي، عشرة أو عشرين أو حتى ثلاثين امرأة، وكانت لديه في وضع الجارية العشيقة المهين، وتقوم، إضافة إلى ذلك بعمل شاقّ، قذر[٣٣].

إن الفلاحين، الذين كانوا الحليف الأقوى والأهم للزنج، لم يتحرّروا، هم الآخرون، من نير الضرائب في الأراضي التي بات

أسيادَها عبيدُ الأمس. أما سكان المدن (والأغنياء منهم خصوصاً) فقد تكبّدوا خسائر كبيرة بسبب الحرائق والسلب والنهب، ناهيك عن مذابح السكان. وفي رقعة السيادة الزنجية تقلّصت التجارة، الأمر الذي انعكس على وضع التجّار والحرفيّين. وعلى هذا الشكل، فان المؤخّرة، والقاعدة الاجتماعية للزنج كانت غير متينة، لأنهم استطاعوا البقاء بقوة السلاح ليس إلا.

وعند نهاية سبعينيات القرن الثامن، كانت القيادة العليا للزنج قد استحالت إلى فئة سائدة متسلّطة لمالكي الارض، ومالكي العبيد الأثرياء. وبامتلاكها الارض الخاصة والعبيد، كانت هذه الفئة تستغلّ الفلاحين وسكان المدن الكادحين، كما كانت تبتزّ الزنوج البسطاء، مستأثرة بالشطر الأكبر من الغنائم والضرائب والإتاوات والعوائد. وبتمتّعها بالسلطة التي لا حد لها وبالثروات الطائلة، ثبتت نظام الخلافة الاستبدادي المطلق مثالاً لنظام الدولة. وبالفعل أعلن علي ابن محمد نفسه خليفة على الأرض، التي استولى عليها الزنج، وأمر بإقام الصلاة باسمه في الجوامع حاكما مكتمل السيادة، وبضرب العملة باسمه. إن تأسيس "الخلافة الصغيرة" للزنج كان مؤشراً دلالته الانفصام الطبقي الاجتماعي العميق في أوساط الزنوج. كما أن تحالف الزنج مع الطبقة الفقيره الحرة قد فسح المجال، وفي أوساط الزنوج أنفسهم، لظروف عدم المساواة الاقتصادية والسياسية، التي ظهرت على نحو حادّ، وازدادت التناقضات الاجتماعية –الاقتصادية. ولوحظت في صفوفهم خيبة الأمل، والتردّد، وعدم الثقة في النفس. وقد قلّص كل هذا من القدرة القتالية لقواهم.

وفي عام ٨٨٠، ألحق الزنج، مرة أخرى، الهزيمة، بفصيل من قوات بغداد. غير أن القوات العباسية والأسطول تحت قيادة الموفّق، تحركت ببطء وحذَر، إلى الجنوب، متفحّصة بعناية الأراضي التي استولى عليها الزنج. وبخلاف قادة الخلافة العبّاسية السابقين، الذين كانوا يبيدون جميع الزنوج الذين يقعون في أيديهم، فإن الموفّق انتهج سياسة حصيفة؛ فقد كان يعامل بتسامح وبلطف الزنوج الأسرى والعزل، ويمنع جنوده من قتلهم وتعذيبهم[٣٤]. إن مثل هذه المعاملة للزنوج كانت تهدف، دون شك، الى الحيلولة دون إبلاغهم حافة اليأس المدمر، وكانت تبغي بذلك إضعاف مقاومتهم.

وعند تحرّك قوات الموفق إلى الجنوب، تحوّل الزنج إلى الدفاع، مركزّين قوّاتهم المسلحة في المعسكرات المحصّنة. وقد استولى الموفق على هذه المعسكرات بالانقضاض. وقد منحه الأسطول النهري، بجانب قواته، إمكانية التغلغل والتوغّل إلى أي نقطة حصينة للزنوج، وقمع مقاومة المدافعين عنها. وقد صمدت النقطة الكبرى للزنج (المختارة)، مقر إقامة علي بن محمد، في وجه حصار استمر ثلاثة أعوام، وصدّت حاميتها المقاومة باستماتة عدداً من هجمات الانقضاض التي قامت بها قوات الدولة. وقد تعيّن على الموفق أن يبني معسكراً جيّد التحصين، من أجل أن يجنّب قواته الخسائر الفادحة في الأرواح، التي كانت تسبّبها الغارات الليلية الجريئة للمُحاصَرين. وقد عرَض على علي بن محمد الاستسلام، ومبايعة الخليفة، ووعده بالعفو مقابل ذلك[٣٥]. غير أن قائد الزنج أبى أن يكفّ عن المقاومة التي باتت دون جدوى. وقد عانت حامية المختارة، أكثر ما عانت، الجوع، لأن الحصار الذي فرضته قوات الموفّق كان يحول دون دخول المواد الغذائية. وقد فرّ قسم من الزنوج المحاصَرين، من الحصن، والتحقوا بمعسكر الموفق، الذي أحسن معاملتهم. وأخيراً، وفي عام ٨٨٣، لم تستطع حامية المختارة التي بلغ بها الإنهاك والجوع مبلغة أن تصمد للانقضاض الضاري عليها، فسقط الحصن. وأتيَ برأس عليّ ابن محمد ليُرمى عند قدَمي الموفّق.

وبعد إخماد الثورة، تعرض الزنج لقمع ضار. فقد أبيد الكثيرون منهم، وحوّل الباقون من جديد إلى عبيد. وانهالت موجات القمع الذي لا يعرف الرحمة على شركائهم الأمناء، الأزارقة، أيضاً. وحين استولى الزنج على البصرة، لعب الدور السياسي القيادي، المهلّبي أحد أنصار علي بن محمد، والمقربين إليه. وكان في صلواته ووعظه يدعو إلى استنزال الرحمة على قائد الزنج، وعلى الخليفتين الأولين –

أبي بكر وعمر، وبعد ذلك يلعن العباسيين المستبدّين الظالمين. وبين البصريّين تكشّف عدد غير قليل من مريدي هذا الأزرقيّ المنتهب وشركائه في التفكير، الذين لم يتنصّلوا عمّا كانوا يعتقدونه، وواصلوا التجمّع في أيام الجمع لأداء الصلوات، واستماع الوعظ الديني. صحيح أن كثيرين منهم هجَروا البصرة ابتغاءَ النجاة من اضطهاد سلطات الخلافة. وقد قتل أكثر الأزارقة، الذين بقوا في البصرة، أو رُمُوا في النهر. ولكن كان هناك عدد غير قليل من أولئك الذين اختفوا عن العيون في الأقنية، وفي الآبار. وكانوا لا يبرحون ملاجئهم إلا ليلاً، ليتصيّدوا، وهم يَعدُون في الشوارع والميادين المقفرة من الناس، كلّ ما يلقونه من كلاب وقطط وجرذان، التي كانت تشكّل الغذاء الأساس لهم وحين أتوا على هذه الحيوانات انتقلوا إلى أكل الجثث، آكلين موتاهم(٣٦).

لقد كانت النتيجة الأساس لثورة الزنج هي اندثار نظام العبودية. صحيح، أن اندثاره النهائي لم يتمّ، لأنه استمر واستمر استخدام العبيد في الإنتاج الحرفي. غير أن استغلال العبيد في الزراعة، وفي الري الصناعي بطل العمل به. ونتيجة لذلك، تقلّص، إلى حد بعيد، استيراد العبيد من افريقيا، لأنه بات مقتصراً، بشكل استثنائي تقريباً، على تطمين الحاجة لاستخدامهم في البيوت.

الهوامش

*١ بارتولد- مستشرق مشهور، نشرت معظم أعماله في عهد ما قبل ثورة أكتوبر. (المترجم)

(1) v. Bartold, khalif & sultan, pp. 214- 215.

(2) Angles- to Markc, 6 gune 1853, -K. M& F. Angles, comp. Works, 2ed., Vol. 28, p. 221.

*٢ المقصود بذلك، ما أسمي في وقته ب"الخراج". ووفقاً لكتاب أبي يوسف الشهير "الخراج"، فإن الخراج هو مقدار معين من المال أو الحاصلات يجبى من الأرض التي صولح عليها..... (المترجم)

*٣ يقول الماوردي في كتابه "الأحكام السلطانية" (ص١٣١): "والأرضون كلها تنقسم أربعة أقسام: أحدها- ما استأنف المسلمون إحياءه، فهي أرض عشر لا يجوز أن يُوضَع عليها خراج. والقسم الثاني - من أسلم عليه أربابه فهم أحقّ به، فتكون على مذهب الشافعي أرض عشر، ولا يجوز أن يُوضَع عليها خراج. والقسم الثالث -ما مُلك عن المشركين عنوة وقهراً، فيكون على مذهب الشافعي رحمه الله غنيمة تقسم بين الفاتحين، فيملكونها ويدفعون العشر من غلتها، وحينئذ تكون أرض عشر لا يُوضع عليها خراج. والقسم الرابع -ما صُولح عليه المشركون من أرضهم فهي الأرض المختصة بوضع الخراج عليها"... ويميل أبو يوسف صاحب كتاب "الخراج" الى ما ذهب إليه الماوردي.... (المترجم)

*٤ يقول أبو يوسف: لا يضرب أحد من أهل الذمة في استيدائهم الجزية، ولا يقاموا في الشمس ولا غيرها، ولا يجعل عليهم في أبدانهم شيء من المكاره، ولكن برفق، ويحبسون حتى يؤدوا ما عليهم". (كتاب الخراج، ص٧٠)- (المترجم).

(3) N.A.Mednikov, Palestina, vol.4, pp.1311-1314.

*٥ كتب أبو يوسف، قاضي هارون الرشيد، الى هذا الخليفة الذي بلغت الدولة العباسية في عهده ذروة الرفعة والجبروت، كتب يقول: ينبغي يا أمير المؤمنين أيدك الله أن تتقدم في الرفق بأهل ذمة نبيك وابن عمك محمد صلى الله عليه وسلم، والتفقد لهم حتى لا يظلموا، ولا يؤذوا، ولا يكلّفوا فوق طاقتهم، ولا يؤخذ شيء من أموالهم بحق عليهم. فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من ظلم معاهداً أو كلّفه فوق طاقته فأنا حجيجه". (كتاب الخراج) -المترجم

*٦ الكلمات الموضوعة في أقواس، وردت هكذا في الاصل، ويقصد المؤلف بها التسميات الجديدة المعاصرة للمؤسسات القديمة. (المترجم)

*٧ تقع هاتان المدينتان الآن في جمهورية (مالي٩) –المترجم

*٨ تسمى هذه الجزيرة الآن "سري لانكا"، الا أن اسمها التاريخي "سـيلان" هو الغالب عليها.... (المترجم)

(4) I.U Krachkoveki . Arabskaia Geographskaia Literatura,- izb soch. (Select. Woks), vol. Tv, p.281.

*٩ الجونكات– هي السفن الشراعية الخفيفة، التي كانت تُصنع في الصين، تمتاز بمؤخرة مرتفعة ومقدمة منفرجة.(المترجم)

*١٠ المقـصود بهم الأسـرة الملكية الحاكمة في الصين، والمعاصرة للخلفاء العباسيين. (المترجم)

(5) Ibid, p. 141.
(6) Ibid.p. 141.
(7) Ibid, p.144.
(8) H.pirenne, Mahome t et charlemagne, 2'ed, Paris, 1937.
(9)V.V Bartold, Karl VILIKI & Harun ar-Rashid- "Khristiancki Vostok ",vol. 1, vip.1, 1912, p.p 69-94.
(10) Ibid, pp. 76-77.
(11) A.A. Vasiliev. Karl Viliki. & Harun -ar-Rashid,- "Vizanticki Vremmenik", vol. Xx, vip. 1, otd. 1, 1913, pp. 63-116.
(12) V.V. Bartold, K Voprosu o Franco-Musulmanckikh otnoshiniakh, "Khristianski Vostok" ,vol3 Vip٣١. 3, spb, 1914, pp. 263-296
(13) Ibn Khaldun, Mukaddima, vol. 1, pp. 18-24.
(14) A.A.Vasilier. Lektsi po istor Vizanti, pg, 1917, p.p 212-213.
(15) A.A Vasiliev, Vizantiya & Arabi, pp. 82-104.
(16) Ibid, pp. 53- 75, A.A. Vasiliev, Lektsi po istori Vizanti p.p. 262- 263.
(17) H. Lammens *, La Syrie ..., Vol. 1, p.131.

*١١ ليس كلّ ما يورده الأب لامنس وما يقـوله صحيحـاً مطلقـاً، وللتوسع والاطلاع على مغالطات وتهجمات لا منس على العرب، انظر كتـاب "آراء غربية شرقية" لعمر فاخوري..(المترجم)

(18) N.N. Pigulivskaia, A.U. Yakubocki, I.P. Petrushevcki, L.V. Stroeva, **A.M. Belinitcki, Istoria Irana**, p, 127.

*١٢ تقع هذه المناطق الآن في أوزبكستان– (المترجم)

(19) A.K.Yakbobvcki, **Vosstania Mykanna-** Dvijinie Ludiei V "belikh **odejdakh**", -" Soetskoe Vostokovedenie" **vol,v.** Leningrad, 1948, pp. 47- 48.
(20) A.A Vasiliev, Vizantia & **Arabi, p.**104.
(21) Z.M. Buniyatov, **Azerbaidjan** & vii- 1x benax.
(22) A.A Vasiliev, Vizantia & **Arabi, p,**114.

*١٣ رأينا– أن هذا الاجتهاد من جانب البرفسور بيلايف لا يستقيم تماماً، اذ أن من المستبعد أن يكون هذا هو السبب الأساس في عدم وقوع اتفاق، والسبب، كما نراه، هو طموح بابك للقضاء– حتى ولو بالتحالف مع الإقـطـاع –على الإسلام ونظمه والعودة الى المزدكية.... (المترجم)

(23) C. Huart, Hstoire des **Arabes**,p.300.
(24) Sayed Ameer Ali, A **short History** of the Saracens, London, p.p. 271- 272.

* يبدو رأي البرفسور بيلايف هذا عسيراً على القبـول ناهيك عن مناقـضته لمقولاته السابقة هو نفسـه. ذلك أن ثورة الاسـلام، كما هو متفق عليه لدى عموم المؤرخين ذوي المنهج العلمي، قد نقلت العرب من العبودية الى الإقطاع. ويصحّ هذا ليس على الأمصار العربـية الصرفة وحـدها بـل على كل أنحاء الإمبراطورية الإسلامية في عهودها كافة.(المترجم).

(25) Tabari.p.1742.
(26) Ibid, pp.1743-1745
(27) Ibid , pp.1746-1747
(28) Ibid , p.1748
(29) Ibid , p.1751.

*– المقصود بذلك (كما يشير المعجم الأكاديمي الروسـي) (الآيديولوجية التي تتميّز بالتماسك والالتحام التام في أجزائها المتنوعة)–(المترجم).

(30) Masoudi , Les Prairies d, or,vol.vill p.p31-29.
(31) Tabari ,p.p. 1834-1838.
(32) Masoudi, Les Praies d or,r. p.s8.
(33) Ibid, p.60
(34) Tabari ,p. 1972.
(35) Ibid, p.1981
(36) Masoudi, Les Praires ds or,vol.vill p.p. 58-59.